ستيفنسون

المختطف

الجزء الاول



ترجَمة: مجيد ياسين

المختطف

الجزء الاول

ستيفنسون

ترجمة: مجيد ياسين

المختطف
تأليف ستيفنسون
ترجمة مجيد ياسين
الطبعة العربية الاولى ١٩٩١

الناشر وزارة الثقافة دار ثقافة الاطفال
العراق - بغداد - بريد ٨ شباط ص.ب. ٨٠٤١

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام فاروق سلوم
سكرتير التحرير فاروق يوسف

المختطف

تقديم

إن روايــة (المختطف)، رغم كونهــا سكوتــلانديــة صميمــة جــوّاً وشخصيات، لم تكتب في سكوتلاندا، بل في مدينة بورنماوث على الساحل الجنوبي لانكلترا، حيث اقام (روبرت لويس ستيڤنسن) وزوجته بين عامي ١٨٨٤و١٨٨٧. هناك اشترى والد الروائي بيتاً لابنه اطلق عليه الاخير اسم (سكيريڤور) تيمناً بمنار ارشاد السفن المشهور الذي بناه عم المؤلف قرب (تايري) في جرر الهبريديز. احترفت عائلة ستيڤنسن بناء منارات إرشاد السفن لأجيال، وكان لويس سيصبح بناء منارات هو الاخر لو لم تكن صحته المعتلة طوال حياته سبباً في جعله ينصرف الى دراسة القانون اولاً ثم الى احتراف الكتابة. ظل المرض يلازمه حتى في بورنماوث (بورنمث).

ولولا مغادرته انكلترا الى اوربا ثم استقراره في (ساموا) بعد تجوال بين جزر المحيط الهادي المشمسة، لما نعم بالصحة بضع سنوات قبل ان يختطفه الموت مبكراً وهو في الرابعة والاربعين في هذه الفترة، التي كات فيها حياته معلقة بخيط، كتب اعظم رواياته في المغامرة: (جزيرة الكنز) و(المختطف) كأنه بذلك يحتج على ضعفه.

كـان قد خطط من قبـل لكتابـة تاريـخ سكوتـلانده خـلال فتـرة الاضطرابات اليعقوبية التي اعقبت انتفاضة عام ١٧٤٥، بعد هزيمة [الأمير تشارلي النحيف] في معركة «كلدن» وقد افاد كثيراً من دراسته لتاريخ سكوتلانده في القرن الثامن عشر في كتابة هذه الرواية. هبطت عليه فكرة كتابة الرواية في عام ١٨٨٥ حين كان وزوجته يدرسان وقائع بعض المحاكمات القديمة، فأعجبتهما قصة «جريمة آين» كما كـانوا يطلقون عليها حينذ اك، فشرع ستيڤنسن بكتابة قصة مغامرات استناداً الى وقائع تلك الجريمة، مستمداً مادة القصة من معرفته الجيدة بمنطقة آين في مقاطعة (آرجلشير (ARGYLL SHIRE). مقدمـاً ل قارىء ثروة من اللهجة والمفردات السكوتلاندية التي يعرفها معرفة مستفيضة منذ الطفولة، امّا الغة الانكليزية التي كتب بها الرواية فتعد انموذجاً في فن الكتابة وقد الحق بالـرواية هـوامش ومعجماً صغيـراً با كلمـات السكوتلاندية الاشد صعوبة. ان شخصية [آلن بريك]، التي تحتـل المقام الاول في الرواية، مستوحاة من شخصية حقيقية، في حين ينتمي (ديفيد بالفور) الذي يروي القصة، الى عائلة والدة ستيڤنسن

يرى الروائي الامريكي [هنري جيمس] الذي كان من اشد المعجبين بأدب ستيڤنسن، ان رواية (المختطف) افضل اعماله، بل ان ستيڤنسن نفسه يحكي لنا كيف جرفه تيار الرواية. قال: «في واحد من كتبي، وفي واحد فقط، اخذت الشخصيات الزمام وسرعان ماانفصلت عن الورق وادارت ظهورها لي وانطلقت الى الدنيا، ومنذ ذلك الحين تقلصت وظيفتي

فالشخصيات هي التي راحت تتكلم، وهي التي اكملت القصــة». ان الطريقة في جعل الشخصيات «نابضة بالحياة» هي التي تجعل روايات ستيفنسن سـاحـرة. وتجعـل هـذا الـروائي يستحق بجـدارة اسم «توسبيتالا» اي «راوي الحكـايات» الـذي اطلقه عليـه ابناء جـزيرة ساموا.

دي.سي.براوننغ

١٩٦٠

لفصل الأول

(بدء رحلتي الى بيت آل شوز)



تبدأ قصة مغامراتي صباح يوم من اوائل ايام شهر حزيران عام ١٧٥١، حين اوصدت باب بيت ابي للمرة الاخيرة. كانت الشمس تلقي بنورها على ذرى التلال عندما استقبلت الدرب. ومع وصولي الى بيت القس كانت الحساسين تغرد بين شجيرات الياسمين فيما بدأ الضباب المخيم على الوادي منذ الفجر بالانقشاع.

كان المستر كامبل، قسيس ايسندين، في انتظاري عند بوابة الحديقة. رجل طيب! سألني ان كنت افطرت ولما اخبرته بأني لااحتاج شيئاً اخذ يدي بين راحتيه وتأبطها بحنان. قال:

ـ حسناً ياديفي، ياولدي. سأصحبك حتى المخاضة، لاطمئن على دربك.

ومضينا في الطريق بصمت. قال بعد برهة:

ـ هل آسف انت على مغادرة ايسندين؟

قلت:

ـ عجباً ياسيدي! لو كنت اعرف الى اين انا ذاهب وكيف ستنتهي بي الحال، لكنت صارحتك بذلك.

ايسندين مكان طيب حقاً، وكنت في منتهى السعادة هنا لكني لم ار شيئاً من الدنيا قط. بعد وفاة ابي وامي لم يعد يربطني بايسندين اكثر مما يربطني بمملكة المجر و.. صدقني اذا وجدت في الذهاب فرصة لتحسين حالي فسأذهب عن طيب خاطر.

قال المستر كامبل:

ـ هكذا؟ حسن جداً ياديفي. اذن ينبغي علي ان اخبرك بمالك عندي، اذا جاز التعبير. حين توفيت والدتك وتدهورت صحة والدك (الرجل المسيحي المحترم) وقاربت نهايته اودع لدي رسالة معينة قال انها ميراثك.

يقول: «حالما ارحل عن الدنيا ويغلق البيت ويباع الاثاث (كل هذا تم ياديڤي) اعط هذه الرسالة الى ولدي باليد وابعث به الى بيت آل شوز، الذي لايبعد كثيراً عن (كراموند) المكان الذي جئت انا منه» قال: «هو ولد عاقل» ابوك قال: «وحذر ايضاً وسيحبه الناس هناك».

صمت:

ـ بيت آل شوز! ماعلاقة ابي المسكين ببيت آل شوز؟

قال المستر كامبل:

ـ لااتفق معك. من يعرف معرفة اليقين؟ لكن اسم تلك العائلة، ياصغيري ديڤي، هو الاسم الذي تحمله انت: عائلة بالفور من آل شوز بيت عريق شريف معروف شاءت الصدفة ان يتدهور في السنين الاخيرة. ابوك ايضاً كان رجل علم يليق بمركزه. مامن احد كان اكفأ منه على ادارة المدرسة، او يملك اخلاقه وطريقته في الادارة. ولكن (كما تتذكر انت نفسك) كان يسعدني دائماً ان استقبله في بيتي ليتعرف على وجهاء

المنطقة وعلى ابناء عشيرتي: كامبل كلرينيت، كامبل دنزوير، كامبل منتش والاخرين. كلهم ذوات معروفون. كانوا سعيدين بمعرفته. اخيراً لكي اضع كل تفاصيل هذا الموضوع امامك، اليك رسالة التوصية نفسها، مكتوبة بخط يد اخينا الراحل.

اعطاني الرسالة التي كانت تحمل العنوان التالي: «الى يد ابنزر بالفور آل شوز المحترم» في بيت آل شوز. سيتولى تسليمها ولدي ديفيد بالفور». راح قلبي يخفق بشدة لهذه الفرصة الكبيرة.. انفتحت فجأة امام فتى في السادسة عشرة، ابن مدير مدرسة ريفية فقير في (غابة ايتريك)

سألت متلعثماً:

-لوكنت بمكاني، يامستر كامبل، اكنت تذهب؟

فقال القسيس:

-بالتأكيد. كنت سأذهب ودون تردد او ابطاء ولد شجاع مثلك لابد يصل الى كراموند (القريبة من ادنبره) في يومين مشياً اذا ساءت الامور الى اقصى درجة واغلق اقاربك الوجهاء (لااملك الا ان افترض ان رابطة الدم هي التي تربط بينكم) الباب بوجهك، فماعليك سوى ان تمشي يومين اخرين عائداً وتطرق على باب القسيس. لكني امل ان يرحبوا بقدومك كما تنبأ والدك المسكين، الذي كان انساناً عظيماً في زمانه حسب علمي.

واستأنف كلامه قائلاً:

-واقول لك ديفي، ياصغيري، إن ضميري يطالبني بأن اجعل فراقنا على المودة ويحتم علي ان احذرك من مخاطر الدنيا.

وهنا تلفت حوله بحثاً عن مجلس مريح فوقع نظره على صخرة كبيرة في ظل شجرة على جانب الدرب فاستراح عليها ثم نشر منديله فوق قبعته الثلاثية الطيات ليحتمي من وهج الشمس التي بدأت تغمرنا به من بين قمم الجبال. ثم راح يحذرني من الوقوع فريسة للبدع والشعوذات الكثيرة. التي لم اكن اميل اليها انا اساساً، وينصحني بوجوب الصلاة

وقراءة الكتاب المقدس بانتظام، وبعدما فرغ من هذه الارشادات حدثني عن البيت العظيم الذي سامضي اليه وكيف يجب ان اتصرف هناك. قال:

ـ كن مطيعاً ياديفي. تذكر انك نشأت في الريف ولو انك ابن ذوات. لاتخجلنا ياديفي لاتخجلنا! هناك في بيتكم الكبير، بكل من فيه من السادة والخدم. عليك ان تتصرف بطريقة حسنة، كن حذراً ومنتبهاً، سريع الفهم قليل الكلام اما بالنسبة لسيد البيت، اللورد فلاتنس انه سيد البيت، لااقول اكثر من هذا. التعظيم لأهل التعظيم. طاعة اللورد سعادة، بل يجب ان تكون كذلك بالنسبة للصغار.

قلت:

ـ حسناً، ياسيدي. قد تكون سعادة اعدك بأني سأحاول بكل مافي وسعي.

فقال المستر كامبل بابتهاج:

ـ نعم الجواب. والان نأتي الى الناحية المادية او (اذا اردت المزاح) الناحية اللامادية. عندي هنا رزمة صغيرة تحوي اربعة اشياء.

واستخرجها، وهو يتكلم، بشيء من الصعوبة من جيب معطفه الداخلي وتابع كلامه:

ـ من هذه الاشياء الاربعة اولها حقك الشرعي: المبلغ الصغير الذي هو ثمن كتب ابيك واثاث البيت التي اشتريتها انا (كما اوضحت لك في البداية) بقصد ان ابيعها بشيء من الربح لمدير المدرسة الجديد. الاشياء الثلاثة الاخرى هي هدايا نرجو انا والسيدة ان تسعدنا بقبولها، الاولى المدورة ستفرحك كثيراً في بداية رحلتك ولكن.. آه ياديفي، ياصغيري.. هي ليست سوى قطرة في بحر ولن تساعدك الا لبضع خطوات ثم تختفي مثل خيوط الفجر. الثانية، المربعة المسطحة. التي فيها كتابة، ستكون لك عوناً طوال حياتك مثل عصا قوية تحميك من اخطار الطريق او وسادة رقيقة تريح رأسك عليها ساعة المرض. اما الثالثة، المكعبة، فهي دعواتي الصادقة بأن تضع قدمك على ارض طيبة.

عند هذا هبّ واقفاً ونزع قبعته وراح يصلي بصوت عالٍ ويدعو بكلمات طيبة عطوفة لصبي ذاهب ليجرب حظه في الدنيا. احتواني بذراعيه فجأة وضمني الى صدره بقوة. ثم ابعدني قليلاً وراح يتأملني بنظرات طافحة بالحزن. بعدها ودعني بصوت عال وكر عائداً من نفس الطريق التي جئنابها. مسرعاً في مايشبه الهرولة لو كان احد غيري لكان ضحك لذلك المنظر، غير اني ماكنت بحالة تسمح بالضحك لبثت ارقبه الى ان غاب عن ناظري. لم يتوقف عن الهرولة ابداً ولم يلتفت الى الوراء مرة واحدة. ثم خطر على بالي ان يكون هذا بسبب حزنه على ذهابي فشعرت بتأنيب ضمير شديد لأني، من ناحيتي، كنت شديد الفرح لمغادرة ذلك الريف الهادىء والذهاب الى قصر كبير حافل بالناس والعيش بين سادة اثرياء محترفين تربطني بهم رابطة الاسم والدم.

قلت لنفسي:

- ديفي، ياديفي، كيف صرت ناكراً للجميل بهذه الصورة؟

ايمكنك ان تنسى الخدمات السابقة والاصدقاء القدامى الذين تجدهم عندك بمجرد ان تنادي عليهم؟ تباً لك، تباً لك. عليك ان تخجل!

وجلست على الصخرة التي غادرها الرجل الطيب قبل قليل، وفتحت الرزمة لرؤية نوعية الهدايا، الهدية التي قال عنها انها مكعبة ماكان عندي شك بماهي. وبالفعل وجدت انها طبعة صغيرة من الكتاب المقدس لأحملها في جيب المعطف الداخلي. ووجدت الهدية التي وصفها بانها مدورة ليست سوى شلن. اما الثالثة التي اراد بها ان تساعدني بصورة مدهشة في صحتي ومرضي طوال حياتي فلم تكن سوى قصاصة ورق اصفر خشن كتب عليها بحبر احمر:

كيفية تحضير شراب زنابق الوادي: خذ زنابق الوادي وقطرها في كيس وخذ من العصير ملعقة طعام واحدة او اثنتين كلما دعت الحاجة. إنّه يفك عقدة اللسان الثقيل، ويشفي من داء النقرس وينعش القلب ويقوي الذاكرة. فاذا وضعته في قارورة واحكمت فوهتها ودفنتها لمدة شهر ثم

استخرجتها وجدت عصير الزهور قد اصبح شراباً مسكراً فاحفظه في قنينة انه مفيد للاصحاء والمرضى، رجالاً او نساء.

وقد اضاف القسيس بخط يده الكلمات التالية:

«وعند الاصابة بالتواء المفاصل افرك موضع الالم بشيء من هـذا الشراب. اما في حالة اليرقان فخذ منه ملعقة كبيرة كل ساعة.»

لااخفي عليكم اني ضحكت، لكنها كانت ضحكـة وجلة، واسرعت اعلق متاعي في طرف عصاي واعبر المخاضة واتسلق الطرف البعيد من التل. ولما وصلت الى الدرب الزراعي الاخضر العريض الذي يمتد عبر المروج القيت نظرة اخيرة على كنيسة ايسندين والاشجار المحيطة ببيت القسيس وشجيرات الورد التي تظلل قبري امي وابي.

الفصل الثاني

(وصولي الى نهاية رحلتي)



في ضحى اليوم الثاني، وكنت وصلت الى قمة احد التلال، رأيت الارض تمتد امام ناظري الى البحر، ورأيت على سلسلة طويلة من التلال مدينة ادنبره يتصاعد منها الدخان مثل تنور، وكان هناك علم يرفرف فوق القلعة وسفن تتحرك او رابضة في المرفأ. كنت استطيع رؤيتها بوضوح رغم بعد المسافة. وأثار منظرها الخوف في قلبي.

وصلت بعد قليل الى بيت يعيش فيه راع دلني بعض الشيء على الطريق التي توصلني الى موضع قريب من كراموند. ومن سؤال الى اخر استطعت ان اصل الى الجانب الغربي من المدينة عن طريق (كولفتن)، حتي وصلت اخيراً الى طريق غلاسكو. هناك رأيت، بشدة فرحي وتعجبي، كتيبة جنود تمشي على انغام الفلوت العسكري بخطى منتظمة.

كانوا كوكبة من المشاة من جنود الصولة الذين يلبسون قبعات مخروطية الشكل، يتقدمهم جنـرال عجوز احمـر الوجـه يمتطي جواداً اشهب شعرت بالزهو لرؤية السترات الحمر وسماع الانغام البهيجة وما ان سرت قليلاً حتى علمت اني وصلت الى ابرشية كراموند، فبدأت اسال عن بيت آل شوز. ادهش هذا الاسم كل الذين صادفتهم في الطريق وسالتهم. ظننت اول الامر ان بساطة مظهري ولهجتي الريفية واتربة الطـريق التي تغطيني لم تكن تتناسب مـع عظمة البيت الـذي كنت اقصده. ولكن بعدما واجهت نفس النظرات وتلقيت نفس الجواب من اثنين او ثلاثة ممن سالتهم بدأت افكر بان هناك شيئاً غريباً يتعلق باسم (شوز) نفسه.

ولكي ابعد هذا الخوف عن بالي غيرت شكل استفساراتي ولمحت رجلاً طيباً يأتي من احد الازقة على عربة حمولة فمضيت اليه اسأله ان كان سمع خبراً عن بيت يدعى بيت آل شوز.

اوقف الرجل عربته ونظر الي بنفس الطريقة، ثم قال:

- اي. لماذا؟

سألته:

- بيت عظيم؟

يقول:

- بلاشك. البيت بيت كبير وواسع.

قلت: اي. لكن الناس الذين فيه؟

فصاح:

- ناس؟ أنت معتوه؟ مامن ناس هناك - تسميهم ناساً.

اقول انا:

- ماذا؟ ولا السيد [ابنزر]؟

يقول الرجل:

- اوه، اي، اللورد موجود هناك، بالتأكيد اذا كان هو من تقصد ماذا

يمكن ان يكون غرضك ايها الرجل الصغير؟

قلت باقصى مايمكن من التواضع:

- قيل لي انني سأحصل على مركز هنا

فيصرخ صاحب العربة بنبرة حادة جعلت حتى الحصان يجفل:

- ماذا؟

ثم اضاف:

- حسناً يارجل. الامر لايعجبني، لكنك تبدو ولداً مؤدباً واذا اردت نصيحة مني فعليك بالابتعاد عن آل شوز.

الشخص التالي الذي صادفته كان رجلاً ضئيل الجرم مهندماً يضع على رأسه باروكة بيضاء جميلة، عرفت فيه حلاقاً خارجاً يبحث عن رزقه. ولما كنت اعرف ان الحلاقين يتسقطون الاخبار فقد سألته بصراحة ان يخبرني اي نوع من الرجال هو السيد بالفور آل شوز. فقال الحلاق:

- تف، تف، تف. ليس نوعاً من الرجال. ليس نوعاً ابداً.

وراح يسألني بذكاء عما جئت ابحث عنه، لكني كنت اذكى منه فتركني خائباً وانطلق يبحث عن زبون آخر.

لا استطيع ان اصف الصدمة التي تلقتها اوهامي فكلما ابتعدت الاتهامات عن التحديد الواضح زاد نفوري منها لانها تفتح باب التصورات والتأويلات. اي بيت عظيم هذا الذي يجعل كل ابناء المنطقة يذعرون وينظرون شزراً الى من يسألهم عن الطريق الى هذا البيت؟ او مانوع سيد البيت الذي يتمتع بهذه الشهرة السيئة حتى بين المارة؟ لو ان العودة الى ايسندين تستغرق ساعة من المشي لكنت تركت مغامرتي وكل شيء وعدت الى بيت المستر كامبل، لكن بعد هذه المسافة الطويلة التي قطعتها لايكفي مجرد الشعور بالعار لأن يثنيني عن عزمي حتى اتأكد بالدليل القاطع.

ووجدت نفسي مدفوعاً، من باب احترام الذات الى الاستمرار وصرت اكره مااسمع وامشي على مهل، انما بقيت اسأل المارة عن الطريق واتابع سيري.

كانت الشمس توشك على الغروب حين قابلت امرأة قصيرة ممتلئة سمراء اللون عابسة الوجه نازلة من احد التلال. ولما طرحت عليها سؤالي المعتاد تلفتت حولها بحدة ثم اصطحبتني الى اعلى التل الذي نزلت منه قبل قليل واشارت الى مبنى ضخم ينتصب عارياً على ارض حقل في قعر الوادي المجاور. كان منظر الريف من حولي جميلاً تحيط به تلال واطئة تكسوها الغابات وتنحدر منها الجداول.

وبدت الحقول امام عيني رائعة الجمال. لكن البيت بدا مثل الخرائب. فلا طريق يؤدي اليه ولادخان يرتفع من مداخنه ولايحيطه اي اثر لحديقة غاص قلبي وصرخت:

- ذاك!

فتوهج وجه المرأة بغضب حقود وصاحت:

- ذاك هو بيت آل شوز! الدم بناه والدم اوقف بناءه والدم سيهدمه.

وصرخت ثانية:

- انظر الي! سابصق على الارض والعنه! ستكون نهايته سوداء! اذا رأيت اللورد فقل له ماسمعت قل له ان هذه المرة الالف ومئتين وتسع عشرة التي تصب فيها [جينيت كلاوستن] لعناتها.. على بيته وابقاره وخيوله ورجاله وضيوفه.. على السيد وزوجته وابنته او طفله الصغير.. لتكن نهايتهم سوداء، سوداء!

واستدارت المرأة التي ارتفع صوتها حتى صار مثل نباح بشع، ومضت في طريقها. تسمرت في مكاني وقد انتصب شعر رأسي من الخوف. كان الناس في تلك الايام مازالوا يؤمنون بالسحر ويرتجفون رعباً من اللعنات. وجاءت هذه اللعنة المفاجئة المخيفة لتشل حركتي قبل ان انفذ ماجئت من اجله وتجعل ساقي لاتقويان على حملي.

جلست ورحت احدق ببيت آل شوز. وكلما اطلت النظر زاد منظر الريف جمالاً. كانت شجيرات الزعرور البري المزهرة منتشرة في كل مكان والحقول مزدانة بالاغنام. وعبر السماء في تلك اللحظة سرب بديع من

الأوز. والتربة طيبة والجورائق، لكن منظر الثكنة الصخرية وسط هذا المنظر أفسد علي فرصة الاستمتاع بجمال الطبيعة.

بدأ الفلاحون يعودون من الحقول وانا جالس على حافة احدى القنوات. غير اني كنت حزين النفس فلم اسلم عليهم. واخيراً غربت الشمس. ثم رأيت بازاء الافق الشاحب خيط دخان يرتفع. بدا لي مثل دخان شمعة، لكنه كان دخاناً حقيقياً يعني وجود نار ودفء وطبيخ ويعني ان هناك اناساً في البيت هم الذي اشعلوا النار فرقص قلبي طرباً لذلك. وقلت في نفسي ان هذا افضل بكثير من قنينة شراب الزنبق التي يعتبرها المستر كامبل كنزاً كبيراً.

وهكذا انطلقت معتمداً على درب بين الحشائش غير واضح. لم يكن درباً يؤدي الى منطقة مأهولة بالسكان بمعنى الكلمة، لكن ماكان امامي طريق سواه. وسرعان ماوجدت نفسي امام اعمدة صخرية بجانبها بيت استراحة بلاسقف تعلوه شعارات عائلات من النبلاء. كان هناك مدخل رئيسي لم يكمل بناؤه. فبدلاً من البوابة الحديدية المزخرفة كانت هناك بوابة من الالواح الخشبية مشدودة بحبل من القش. ولما لم تكن هناك جدران ولا مايدل على وجود درب اخذت طريقي عن يمين الاعمدة الصخرية ماضياً على غير هدى باتجاه البيت.

صار البيت يبدو اكثر وحشة وكآبة كلما اقتربت. ولاح جانب من البيت غير تام البناء. فقد كان الطابق الثاني من تلك الجهة مكشوفاً بلا سقوف، بينما كانت درجات السلم المؤدي الى ذلك الطابق غير كاملة البناء. كان زجاج النوافذ وسخاً والعديد من النوافذ بلا زجاج والخفافيش تتطاير داخلة خارجة في اسراب.

بدأ الظلام يخيم حين اقتربت. ولاح وهج نار ضئيلة من خلال ثلاث نوافذ ارضية ضيقة وعالية بالقضبان الحديدية.

اهذا هو القصر الذي جئت اقصده؟ ابين هذه الجدران ابحث عن اصدقاء جدد وابني مستقبلي الكبير؟ لم كانت النار لاتنطفىء في موقد

ابي في ايسندين والانوار تتلألأ على بعد ميل والباب يفتح لكل طالب صدقة او احسان!

اقتربت من البيت بحذر، منصتاً لأقلّ صوت، فسمعت خشخشة صحون اعقبتها نوبة من السعال الجاف السريع. ولكن لم يكن هناك من يتكلم ولم اسمع نباح كلب.

كان باب البيت، كما بدا لي في ظلمة المساء، كتلة ضخمة من الخشب مغطاة بالمسامير. رفعت يدي بقلب خائف وطرقت مرة واحدة. ثم وقفت انتظر. ظل البيت غارقاً في صمت كصمت القبور، ومرت دقيقة لم اسمع خلالها اي صوت سوى حفيف اجنحة الخفافيش تتطاير من فوق رأسي.

فطرقت الباب ثانية واصغيت. كانت اذناي قد الفتا الهدوء المخيم حتى صرت اقدر على سماع تكتكات الساعة الجدارية في الداخل وهي تعد الثواني ببطء. غير ان احداً ما في البيت لم يأتِ بل ظل ساكناً سكون الاموات، حابساً انفاسه.

تنازعتني فكرتان. واحدة منهما ان اهرب عائداً لكن غضبي هو الذي تغلب، فبدأت انهال على الباب ركلاً ودقاً بقبضتي والمناداة على السيد بالفور بصوت عالٍ. كنت في ذروة الانفعال حين سمعت السعال فوق رأسي. واذ قفزت الى الوراء ونظرت الى الاعلى رأيت رأس رجل بقلنسوة نوم طويلة وبندقية قصيرة ذات فوهة تشبه الجرس في احدى نوافذ الطابق الاول. وجاء صوت يقول:

ـ البندقية معبأة.

قلت:

ـ جئت برسالة الى السيد ابنزر بالفور آل شوز. هل هو موجود؟

سألني الرجل ذو البندقية القصيرة:

ـ ممن؟

قلت، وقد استبد بي الغضب:

ـ ليس هذا مهماً.

فجاء الرد:

ـ طيب. يمكنك ان تتركها على عتبة الباب وتمضي لحالك.

فصحت:

ـ لن افعل شيئاً من هذا القبيل. ساسلمها بيد السيد بالفور كما طلب مني. انها رسالة توصية.

فصاح الصوت بحدة:

ـ رسالة ماذا؟

اعدت ماقلته. فجاء السؤال التالي بعد فترة صمت طويلة:

ـ من تكون، انت نفسك؟

قلت:

ـ انا لااخجل من اسمي، يسمونني ديفيد بالفور.

تأكدت ان الرجل اجفل في تلك اللحظة لأني سمعت صوت اصطكاك البندقية بحافة النافذة، وبعد سكوت طويل حقاً، شعرت بتغير غريب يطرأ على نبرة الصوت حين طرح السؤال التالي:

ـ توفي ابوك؟

دهشت كثيـراً لهذا السؤال حتى ان صـوتي اختنق فلم استطع الاجابة، بل لبثت احدق فيه مبهوراً، استأنف الرجل كلامه:

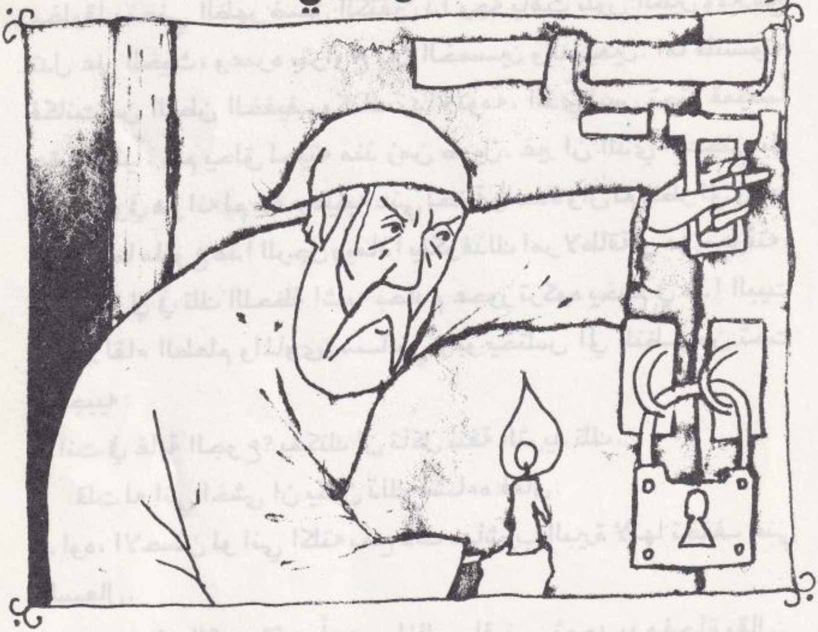
ـ اي. هو ميت. لاشك، وهذا ماجاء بك لتدق علي بابي.

مرت فترة صمت اخرى، ثم قال بتحد:

ـ حسناً يارجل، سادعك تدخل واختفى من النافذة.

الفصل الثالث

(أتعرّف على عمي)



وفي الحال سمعت ضجيج سلاسل ومزاليج ثم فتح الباب بحذر ليغلق ثانية بعد دخولي مباشرة. قال الصوت:

ـ اذهب الى المطبخ ولاتلمس شيئاً.

وبينما راح الشخص الموجود في البيت يعيد ربط السلاسل والمزاليج وتحصين الباب تلمست انا طريقي الى المطبخ.

كانت النار متوهجة بعض الشيء فرأيت على ضوئها غرفة عارية من الاثاث بشكل لم أرَ مثله في حياتي. كانت هناك ستة صحون على رف. ومائدة معدة للعشاء عليها صحن ثريد وملعقة عظيمة وقدح بيرة رديئة.

وفيما عدا الاشياء هذه لم يكن في تلك الغرفة الصخرية الواسعة المتينة البنيان الخالية سوى عدد من الصناديق الثقيلة المقفلة رصفت على

امتداد الجدران وخزانة مقفلة بقفل ثقيل في زاوية الغرفة.

عاد الرجل الى المطبخ حال ما انتهى من ربط آخر سلاسل الباب. كان مخلوقاً منحني الظهر ضيق الكتفين ذا وجه باهت بلون الطين وملامح تدل على الخبث، وعمره يتراوح بين الخمسين والسبعين. اما قلنسوته فكانت من القطن الخفيف وكذلك رداء نومه، الذي لبس تحته قميصاً عتيقاً بالياً، ولم يحلق لحيته منذ زمن طويل. غير ان الذي ازعجني بل واثار خوفي هو انه لم يرفع عينيه عني لحظة واحدة وان لم ينظر الي وجهاً لوجه. اما مانوع هذا الرجل وبماذا يفكر فذلك امر لاطاقة لي على معرفته، لكنه بدا لي في تلك اللحظة اشبه بخادم عجوز تركوه يخدم في هذا البيت الكبير لقاء الطعام والمأوى. سـألني وهو يختلس الي النظـر من تحت حاجبيه:

ـ انت في غاية الجوع؟ يمكنك ان تأكل نتفة الثريد تلك.

قلت له اني اخشى ان يكون ذلك عشاءه:فقال:

ـ اوه، الاحسن لو اني اكلته، مع ذلك سأشرب البيرة لأنها تخفف عني السعال.

وشرب نصف القدح تقريباً وهو مازال يراقبني. ثم مد يده فجأة وقال:

ـ دعنا نر الرسالة.

فقلت له ان الرسالة موجهة الى السيد بالفور وليست له، فيرد علي قائلاً:

ـ ومن تظنني اكون؟ اعطني رسالة الكساندر!

ـ تعرف اسم والدي؟

فرد علي:

ـ الغريب في الامر هو ان لااعرفه. لأنه شقيقي. ورغم انك على مايبدو لاترتاح لي اولبيتي اوثريدي اللذيذ، فأنا عمك ياديفي، يارجلي وانا عمك الحقيقي. فاعطنا الرسالة واجلس واملأ معدتك.

لو اني كنت اصغر عمراً ببضع سنوات لكانت امتلأت نفسي بالخجل والضجر والخيبة، ولكنت انفجرت بالبكاء كما اعتقد. وعجزت عن الرد

سلباً او ايجاباً. لكن الذي فعلت اني مددت يدي اليه بالرسالة وجلست الى المائدة ورحت آكل الثريد. بشهية فاترة لاتناسب شاباً مثلي.

انحنى عمي نحو النار وصار يقلب الرسالة بيده. سألني فجأة:

ـ اتعرف مافيها؟

قلت:

ـ انظر اليها بنفسك ياسيدي، ترى الختم لم يكسر بعد.

قال:

ـ اي. لكن ماالذي جاء بك الى هنا؟

فقلت:

ـ لأعطيك الرسالة.

فيقول بخبث:

ـ لا. لكن لابد انك تعقد بعض الامال، بلاشك؟

قلت:

ـ اعترف ياسيدي، حين اخبروني بأن عندي اقارب اثرياء ساورني الامل بأن يساعدوني على شق طريقي في الحياة. لكني لست شحاذاً ولا انتظر افضالاً منك ولااريد ان تعطيني اي شيء بغير نفس راضية. صحيح اني ابدو فقيراً معدماً، لكن عندي اصدقاء يسعدهم ان يساعوني.

فقال العم ابنزر:

ـ رويدك، رويدك! لاتسخط عليّ بهذه السرعة. مازال امامنا الوقت لنتفق على احسن صورة. و... ياعزيزتي ديفي، اذا شبعت من الثريد يمكن ان آكل لقمة انا؟

ثم تابع كلامه بعدما ابعدني عن الكرسي والملعقة:

ـ اي. ياله من طعام مفيد لذيذ... الثريد طعام رائع! وغمغم بصلاة مائدة قصيرة وانهال على الصحن.

ـ ابوك كان مغرماً بأكل اللحوم، كما اذكر. كان ذا شهية نشطة، ان لم

يكن اكولاً. اما انا فلا اقدر على ان آكل سوى بضع لقيمات.

وشرب جرعة من البيرة الرخيصة ذكرته بواجبات الضيافة فقال:

ـ اذا كنت عطشاناً فالماء وراء الباب.

لم ارد بكلمة بل نهضت بشدة ورحت انظر من فوق الى عمي وقلبي يفور غضباً. فيما راح هو يأكل بسرعة وشراهة كأنها فرصة لن تعوّض ويختلس النظر الى حذائي وجواربي البيتية.

وعندما غامر برفع عينيه الى الاعلى التقت انظارنا للمرة الاولى ويالها من نظرة خائفة تلك التي ارتسمت على عينيه، وكأنه لص يلقى عليه القبض بالجرم المشهود. هذه الحالة جعلتني افكر ان كان خوفه الشديد هذا نتيجة لطول عزلته عن الناس او انه خوف موقت سرعان مايتلاشى وينقلب عمي الى رجل مختلف كلياً. ايقظني من استغراقي صوته الحاد يسألني:

ـ هل توفي والدك من زمن طويل؟

قلت:

ـ منذ ثلاثة اسابيع ياسيدي.

تابع كلامه:

ـ كان رجلاً كتوماً.. آلكساندر، رجلاً محتشماً قليل الكلام. لم يتفوه بكلمة نابية واحدة في صباه. لن يقول كلاماً سيئاً عني ابداً؟

ـ ماكنت اعلم ابداً ياسيدي ان له اخاً الا عندما اخبرتني بذلك انت نفسك.

فقال ابنزر:

ـ واعجباً، واعجباً! ولاتعرف احداً من آل شوز على ماظن؟

فقلت:

ـ لااكثر من الاسم ياسيدي.

قال:

ـ عندما يفكر الانسان بذلك! رجل ذو طبيعة غريبة! بدا عليه ارتياح

غريب. اما ان يكون ارتاح لكلامه او لي انا او لتصرف والدي فذلك سر لم استطع معرفته في حينه. على انه تخلص كما يبدو من النفور او البغضاء التي شعر بها نحوي في البداية. فقذ هب فجأة من مكانه وقطع الغرفة متجهاً صوبي من الخلف وضربني بقوة على كتفي وصاح:

ـ سنتفاهم على احسن صورة! انا فرحان جداً لأني سمحت لك بالدخول، والان هيا الى فراشك.

الغريب انه لم يوقد سراجاً او شمعة بل خرج الى الممر المظلم، متلمساً طريقه وهو يتنفس بشدة الى درجات سلم ليقف امام باب ويفتحه كنت امشي في اعقابه محاولاً اللحاق به قدر المستطاع. فطلب مني الدخول لأن الغرفة تلك كانت لي. فامتثلت لطلبه، الا اني توقفت بعد بضع خطوات اردت بعض النور لأهتدي به الى فراشي، فقال العم ابنزر:

ـ رويدك، رويدك! القمر جميل.

فقلت:

ـ لاقمر ولانجوم ياسيدي. مظلمة ظلام القبر لااقدر على رؤية السرير.

فقال:

ـ تباً.. تباً! وجود ضوء في البيت شيء لااوافق عليه. انا شديد الخوف من النيران. طابت ليلتك ياديڤي، ياصاحبي.

وقبل ان اجد الوقت الكافي للاحتجاج اغلق الباب علي وسمعته يقفلها من الخارج.

لبثت في مكاني لاادري أأضحك ام ابكي كانت الغرفة باردة، برودة البئر، ووجدت الفراش، الذي تلمست طريقي اليه، رطباً عفناً مثل خضروات متفسخة لكني كنت، لحسن الحظ، قد جلبت معي صرتي ومعطفي. فالتففت بالمعطف واضطجعت على الارض بجانب السرير، وسرعان مااستغرقت في النوم.

فتحت عيني مع اولى تباشير الصباح لأجد نفسي في غرفة واسعة مغطاة جدرانها بالجلد المنقوش. ومؤثثة باثاث مزخرف ومبطن باقمشة

مطرزة، تنيرها ثلاث نوافذ كبيرة. لابد انها كانت، قبل عشر سنوات، وربما عشرين، غرفة جميلة تسر من ينام او يفتح عينيه فيها. لكن الرطوبة والاوساخ والاهمال والجرذان والعناكب فعلت فعلها منذ ذلك الحين. يضاف الى ذلك ان الكثير من زجاج النوافذ مكسور ـ الحقيقة ان هذه الظاهرة منتشرة في كل مكان من البيت حتى اني صرت اعتقد بان عمي كان تحت الحصار من قبل جيرانه الناقمين الذين ربما كانت [جينيت كلاوستن] تقودهم.

كانت الشمس قد اشرقت في تلك الاونة. ولما كانت الغرفة باردة للغاية رحت اركل الباب بقدمي واصيح الى ان جاء سجاني وفتح لي الباب. ثم نادني الى ماوراء البيت، حيث كان بئر ودلو، قائلاً لي ان اغسل وجهي هناك اذا انا اردت. وبعدما فرغتُ من الاغتسال عدت الى المطبخ بعدما بذلت جهداً في الاهتداء اليه فوجدت العم قد اشعل ناراً وانهمك في اعداد الثريد. كان على المائدة صحنان وملعقتان مع نفس المقدار من البيرة الرخيصة، ربما نظرت الى كأس البيرة هذا بشيء من الاستغراب وربما لاحظ عمي نظرتي، لأنه تحدث كأنه يجيب على افكاري. سائلاً ان كنت ارغب في تناول قليل من شراب المائدة ـ هكذا كان يسمي تلك البيرة الرخيصة ـ فقلت له انني متعود على ذلك ولكني لااريد ان ازعجه. فقال:

ـ لا، لا، لن احرمك من أي شيء معقول.

فتناول كأساً اخرى من فوق الرف. وبدلاً من المجيء بمزيد من البيرة قام. وياللعجب! بصب نصف مافي كأسه في الكأس الثانية كان في عمله هذا نوع من النبل جعل قلبي يخفق. لئن كان عمي بخيلاً حقاً فهو من حسن التصرف واللباقة ما يجعل حتى الدناءة تبدو محترمة.

بعد الانتهاء من تناول الطعام فتح عمي ابنزر احد الادراج واخرج منه غليوناً طينياً وكيس تبغ حشا منه الغليون ثم اعاده الى الدرج واقفل عليه ثانية. وجلس في ضوء الشمس عند احدى النوافذ وراح يدخن بصمت. وكانت عيناه تطوفان في ارجاء الغرفة بين الحين والحين

لتستقرا علي ويرميني بسؤال. مرة سألني:

«وماذا عن والدتك؟» وحينما اخبرته بأنها توفيت ايضاً قال:

«اجل، كانت بنية نحيلة!» ثم عاد يسأل بعد سكتة طويلة.

«من هم اصدقاؤك اولئك؟».

اخبرته بأنهم سادة من آل كامبل، ولو انهم في الحقيقة لم يكونوا سوى واحد هو القسيس، الذي لم يكن يعيرني اي انتباه من قبل. كل ماهناك اني بدأت اعتقد بأن عمي عاملني باستخفاف شديد، ولم اشأ ان اتركه يتصور اني مسكين لاحول له ولاقوة لأني يتيم الابوين.

ويبدو انه فكر بهذا الامر فقد قال:

ـ ديڤي، يافتاي. لقد جئت الى المكان الصحيح، بمجيئك الى عمك ابنزر، انا اقدر العائلة تقديراً عظيماً وانوي ان اعمل الشيء الصحيح لك. لكني لااريد، وانا افكر بمستقبلك بأحسن شيء بالنسبة لك ـ ان تدرس القانون او تصبح قسيساً او تدخل الجيش ربما، الذي يحبه الاولاد اكثر من غيره... نعم انا لااريد لأحد من عائلة بالفور ان ينزل رأسه امام بعض ابناء الجبال من آل كامبل.. وبينما افكر بالامر اطلب منك ان تغلق فمك. لارسالة ولاخبر ولا اية كلمة لأي واحد والا فامامك الباب.

قلت:

ـ ماعندي اي سبب، ياعمي ابنزر، يجعلني افترض انك لاتريد لي الخير، انما اريدك ان تعلم اني انسان له كرامته. انا لم آت الى هنا بارادتي فاذا طردتني من بيتك ثانية خرجت ولم اعد.

بدا عليه الارتباك الشديد وقال:

ـ اللعنة.. مهلاً، يارجل، مهلاً! انتظر يوماً او يومين. انا لست منجماً حتى اقرأ لك طالعك في قعر ماعون الثريد. فقط انتظر يوماً او يومين، وتأكد.. تأكد اني سأعمل الشيء الصحيح لك.

قلت:

ـ حسناً جداً. يكفي ماقلناه. اذا أردت مساعدتي فهذا يسعدني دون

شك، وانا في غاية الامتنان.

لقد خيل الي (قبل الاوان حقاً) اني تغلبت على عمي. فطلبت قبل كل شيء ان ينشر الفراش والأغطية في الشمس حتى تجف لأني غير مستعد للنوم في فراش رطب عفن. قال بصوته الحاد الذي يشبه العويل:

ـ أهذا بيتك ام بيتي؟

ولم يلبث ان غيّر نبرة صوته قائلاً:

ـلا، لا لم اقصد ذلك. مالي لك، ياديڤي، يافتاي، ومالك لي. رابطة الدم لاتنفصم، وما من احد سواك وسواي يحمل هذا الاسم.

ثم راح يحكي كيفما اتفق عن العائلة وماضيها العظيم ووالده الذي بدأ بتوسيع القصر وعن نفسه وكيف اوقف عملية التوسيع لأنها تبذير شرير. وهنا قررت ان انقل اليه رسالة [جينيت كلاوسن]. فصرخ قائلاً:

ـ الفاجرة! الف ومئتان وخمسة عشر ـ يعني عدد الايام منذ ان جعلت تلك الفاجرة تبيع حقلها بالمزاد لتسديد ماعليها من ديون. قسماً، ياديڤي، لأشويها على نار متأججة قبل ان اترك الموضوع. ساحرة ساحرة علنية! سأذهب لرؤية كاتب المحكمة.

عندها فتح احد الادراج واستخرج منه سترة طويلة زرقاء قديمة وصديرياً وقبعة من فرو القندس ماتزال محتفظة برونقها فلبس ثيابه هذه على عجل واخرج من الخزانة عصا ليتوكأ عليها واغلق الخزانة وهم بالخروج لولا ان فكرة ما أوقفته. قال:

ـ لايمكن ان اتركك وحدك في البيت.

لابد ان اخرجك واقفل الباب فصعد الدم الى رأسي غضباً وقلت:

ـ اذا اخرجتني واقفلت الباب فلن ترى مني مودة بعد الان.

فشحب وجهه بشدة وعض على شفتيه، وقال وهو ينظر بخبث الى احدى زوايا الغرفة:

ـ ماهكذا.. ماهكذا تكسب فضلي ياديڤيد.

اقول انا:

ـ سيدي، مع احترامي لسنك ولرابطة الدم التي تجمعنا، فانا لااقدر فضلك الذي لاتزيد قيمته على الفلس. لقد تربيت على تقدير نفسي تقديراً جيداً وحتى لو كنت العم الوحيد الذي املك وكل مابقي لي من الاهل في الدنيا، فلن اشتري رضاك بمثل هذه الاسعار.

مضى العم ابنزر الى النافذة فأطل منها لحظة. رأيته يرتجف ويتلوى كمن اصيب بالشلل. لكنه حين التفت نحوي رأيت على وجهه ابتسامة. قال:

ـ حسناً، حسناً.. يجب ان نتحمل ونصبر. لن اذهب وكفى كلاماً في هذا الموضوع.

قلت:

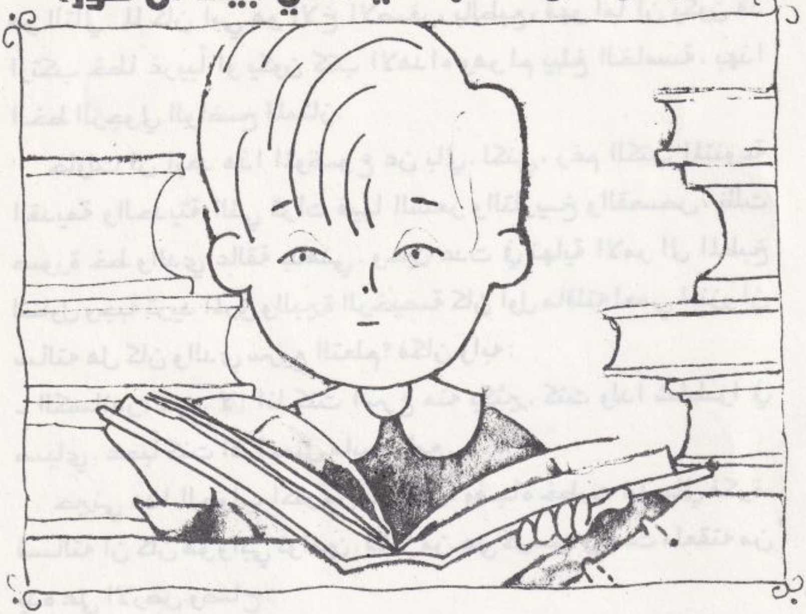
ـ لا أستطيع ان افهم شيئاً من هذا ياعم ابنزر. أنت تعاملني كاللص. وتكره وجودي في هذا البيت، وتحسسني بذلك بكل كلمة وفي كل لحظة. لايمكن ان تحبني. اما بالنسبة لي فقد خاطبتك بمالم اخاطب به رجلاً من قبل. لماذا اذن، تريد الاحتفاظ بي؟ دعني اعد ـ الى اصدقائي والى من يحبني!

فقال بمنتهى الجدية:

ـ لا، لا، لا. انا احبك جداً. مازال امامنا المجال لنتفق بصورة طيبة. لااقدر على تركك تعود من حيث جئت، حفظاً لسمعة العائلة. إبقَ والزم الهدوء، ياولدي الطيب.. مجرد فترة قصيرة تبقى هنا وتلزم الهدوء وستجد اننا سنتفق قلت بعد ان فكرت في الامر ملياً.

حسناً ياسيد، سأبقي بعض الوقت. الوضع الصحيح هو ان يساعدني اهلي اكثر من الغرباء. فاذا لم نتفق فتأكد اني سأبذل كل مافي طاقتي من اجل لايكون الذنب ذنبي.

الفصل الرابع
(التعرض الى خطر شديد في بيت آل شوز)



انقضى ذلك اليوم بصورة حسنة وان بدأ بداية سيئة تناولنا مرقاً بارداً في الغداء ودافئاً في الليل. كان ثريد المرق والبيرة الرخيصة غذاء عمي اليومي. لم يتحدث الا قليلاً وراح يسألني بين حين واخر كما فعل من قبل . وعندما حاولت جرّه الى الحديث عن مستقبلي تملص من الحديث ثانية. وجدت في غرفة بجوار المطبخ، اجبرني على دخولها، عدداً كبيراً من الكتب اللاتينية والانكليزية، تمتعت بها طيلة عصر ذلك اليوم، والحق ان الوقت كان ممتعاً بصحبة الكتب الى الحد الذي جعلني ارضى تقريباً عن اقامتي في بيت آل شوز، لولا ان عيني عمي الماكرتين اللتين تراقبان كل حركاتي كانتا توقظان في نفسي الشعور بالارتياب.

اكتشفت شيئاً جعلني ارتاب. فقد رأيت على الصفحة التالية لغلاف

احد كتب الاطفال (من مؤلفات باتريك ووكر) اهداء مكتوباً بخط يد ابي جاء فيه :«الى اخي ابنزر في عيد ميلاده الخامس». الشيء الذي حيرني هو التالي: لما كان ابي هو الاخ الاصغر، بالطبع، فهو اما ان يكون قد ارتكب خطأ غريباً او يكون كتب الاهداء وهو لم يبلغ الخامسة، بهذا الخط الرجولي الواضح الممتاز.

حاولت ان ابعد هذا الموضوع عن بالي. لكني، رغم الكتب المتنوعة القديمة والحديثة التي قرأت فيها الشعر والتاريخ والقصص، ظلت صورة خط والدي عالقة بذهني. وحين عدت في نهاية الامر الى المطبخ لتناول وجبة ثريد المرق والبيرة الرخيصة كان اول ماقلته لعمي ابنزر ان سألته هل كان والدي سريع التعلم؟ فكان وابه:

ـ الكساندر! هو.. لا! انا كنت اسرع منه بكثير. كنت ولداً شاطراً في صباي. عجباً كنت اقرأ بمثل مايستطيع.

حيرني هذا الجواب اكثر من ذي قبل. وفجأة خطرت على بالي فكرة، فسألته ان كان هو وابي توأمين. فقفز من على كرسيه ووقعت ملعقته من يده على الارض وصاح:

ـ ما الذي جعلك تسأل هذا السؤال؟

وامسك بي من ياقة سترتي وحدق في عيني مباشرة للمرة الاولى. كانت عيناه صغيرتين صافيتين لامعتين كعيني طير وكانتا تومضان وترمشان بصورة غريبة.

سألته بمنتهى الهدوء لأني كنت اقوى منه بكثير ولا اخاف بسهولة:

ـ ماذا تقصد؟ ارفع يدك عن سترتي. ماهكذا يتصرف الناس.

بذل عمي مجهوداً للسيطرة على نفسه، كما يبدو، وقال:

ـ اللعنة عليك ياديڤيد. ماكان يجب ان تحدثني عن والدك. هناك مكمن الخطأ.

جلس وصار يرتجف ويحدق في صحنه ذاهلاً، واضاف بصوت لاحنان فيه:

ـ كان اخي الوحيد في الدنيا.

ثم التقط ملعقته وانهال على الثريد التهاماً وان ظل يرتجف.

هذا الجزء الاخير، هذا الاعتداء باليد علي واعترافه المفاجيء بحبه لوالدي، تجاوز حدود ادراكي وتركني في حالة من الخوف والامل معاً. فقد بدأت افكر، من ناحية بأن عمي قد يكون مخبولاً وبالتالي خطراً. وقفزت الى ذهني من ناحية اخرى (وبالرغم مني) حكاية، تشبه بعض قصص الابطال التي سمعتها في الاغاني الشعبية، عن ولد فقير هو الوريث الشرعي وقريبه الشرير الذي حاول ان يحرمه من املاكه، والا ما الذي يجعل عمي يلعب هذه اللعبة مع قريبه الذي جاء الى بابه كالشحاذ. اذا لم يكن في قلبه بعض سبب للخوف منه؟

اقتنعت تماماً بهذه الفكرة وبدأت منذئذ اقلده بنظراته المتلصصة الماكرة، فجلسنا الى المائدة نراقب بعضنا بعضاً بحذر مثل قط وفأر. لم يقل كلمة واحدة بعد، سيئة او طيبة، بل انصرف الى التفكير في امر خفي كلما طال جلوسنا وكلما تأملته جيداً ازددت قناعة بانه يضمر لي شراً.

حين اجهز على الطعام حشا غليونه بالتبغ مثلما فعل في الصباح وحول كرسيه الى ركن المدخنة وجلس يدخن وظهره الي. قال بعد صمت:

ـ ديفي.. كنت افكر.

وسكت. ثم قال:

ـ هناك بعض المال الذي كنت قد خصصته لك قبل ان تولد. وعدك والدك به، اه، مامن وثيقة قانونية تثبت ذلك.. تفهم ما اعنيه طبعاً.. مجرد رجال محترمون يقطعون على نفسهم وعوداً وهم سكارى حسناً.. انا وضعت المبلغ على حدة المبلغ كبير، لكن الوعد وعد. الان تضاعف المبلغ حتى اصبح بالضبط.. بالتمام. وهنا توقف وتردد قال العبارة الاخيرة بنبرة قوية ومعها نظرة خاطفة من فوق كتفه، ثم اضاف بصوت يشبه الصراخ: «سكوتلاندياً».

ان الباون السكوتلاندي لايزيد على شلن انكليزي. اي ان الفرق في

هذه الحالة كبير. يضاف الى ذلك ان الحكاية كلها عبارة عن اكذوبة. كما يبدو، اخترعها عمي خدمة لغاية لم استطع ان احدس ماهي، فلم احاول اخفاء نبرة المزاح في جوابي:

- اه، فكر ثانية ياسيدي! باون استرليني، كما اعتقد! فرد علي قائلاً:

- هذا ماقلت. اجل، باونات استرلينية! لو تخرج لحظة لرؤية جمال السماء هذه الليلة فسوف آتي بها واناديك.

فعلت ماأراد وانا اضحك مع نفسي استخفافاً بتفكيره الذي صور له اني سهل الانخداع. كانت ليلة شديدة الظلمة وبعض نجوم تلوح في السماء. وحين وقفت خارج الباب سمعت انين الرياح البعيد يطوف بالتلال. قلت في نفسي ان الجو ينبيء بعاصفة وتغير في الطقس. ولم اكن اتصور ان هذه الحقيقة ستكون بالغة الاهمية بالنسبة في تلك الليلة.

وعندما دعاني عمي عدَّ لي في يدي سبعة وثلاثين جنيهاً ذهبياً محتفظاً ببقية المبلغ بيده قطعاً صغيرة من الذهب والفضة، لم يلبث ان دسها في جيبه، قال:

- خذها حتى تقتنع. انا رجل غريب الطباع غريب مع الغرباء، لكني لااحنث بوعدي.. وهذا هو الدليل.

اذهلني هذا الكرم المفاجيء من عمي الشديد البخل فلم اجد من الكلمات مااعبر به عن شكري. قال:

- بلا كلمة! لاشكر. لااريد شكراً. انا اؤدي الواجب. اقول هذا لان كل واحد يمكن ان يفي بوعده انما بالنسبة لي (وان كنت رجلاً متحفظاً بالاساس) فاني مسرور لقيامي بمساعدة ابن اخي وانا مسرور ايضاً لأننا منذ الان سنكون نعم الاصدقاء.

اجبت انا باقصى ما املك من الادب واللياقة. وان بقيت طوال الوقت اتساءل عما سيتبع ذلك وعن السبب الذي جعل عمي يتخلى عن جنيهاته الثمينة. اما السبب الذي ذكره فلا يصدقه الطفل. في تلك اللحظة اختلس الي نظرة وقال:

-وهكذا ترى.. «واحدة مقابل واحدة».

فقلت له اني مستعد لأبرهن له عن امتناني بأية صورة معقولة.

وانتظرت متوقعاً ان يخرج بطلب شرير. واخيراً استجمع شجاعته ليتكلم. كل ماقاله (بطريقة مناسبة كما ظننت) انه قد تقدم في السن ووهنت قواه وانه ينتظر مني ان اساعده في العناية بالبيت والحديقة. فأعربت له عن استعدادي لخدمته. قال:

ـ حسناً. اذن فلنبدأ.

وسحب من جيبه مفتاحاً صدئاً وهو يقول:

ـ خذ. هذا مفتاح البرج الذي في طرف البيت. لايمكنك الوصول الى سلم البرج الا من الخارج، لأن البناء لم يكمل في ذلك الجانب. اذهب الى هناك واصعد الى البرج لتأتي لي بالصندوق الموجود فوق. فيه بعض الاوراق التي احتاجها.

قلت:

ـ هل يمكنني ان آخذ معي ضوء ياسيدي؟

فأجاب بمكر شديد:

ـ لا. لا اضواء في بيتي.

قلت:

ـ حسناً ياسيدي. هل السلم بحالة جيدة؟

قال:

ـ ممتاز.

واذ تحركت للذهاب اضاف قائلاً:

ـ سر بمحاذاة الجدار. لايوجد درابزين. لكن الدرجات قوية ومريحة.

خرجت الى العراء. كانت الريح ماتزال تعول من بعيد لكن نسمة واحدة منها ماكانت تصل الى بيت آل شوز. وزادت ظلمة الليل وشعرت بسرور وانا اتحسس الجدار وامشي في الظلام الى ان وصلت الباب المؤدي الى سلم البرج. وما ان ادركت المفتاح في قفل الباب حتى اخترق

السماء وميض مثل النار فجأة واختفى دون ان اسمع صوت رعد او هدير رياح. كان الوميض من القوة ماجعلني اضع يدي على عيني واغمضها قليلاً لكي استعيد القدرة على الرؤية في الظلام. والحق اني كنت شبه اعمى وانا اضع قدمي على اولى درجات السلم. وتذكرت كلمات عمي عن الدرابزين فالتصقت بجدار البرج وبدأت اتلمس طريق الصعود بقلب خافق.

يرتفع قصر آل شوز الى علو خمسة طوابق، عدا القباب والابراج الجانبية الشاهقة. وبدا لي وانا اتقدم صعوداً ان الهواء زاد حركة والمكان ضوء من الاسفل. وكنت اسائل نفسي عما يكون سبب هذا التغير، حين اخترق السماء وميض برق وتلاشى. فان انا لم اصرخ فلأن الرعب خنق صوتي.

وان انا لم اسقط من فوق فبفضل العناية الالهية لابفضل قوتي. لم تكن المسألة مجرد بريق يخطف الابصار هبط علي من كل جانب حتى ظننت اني ازحف على جسر بناء خشبي شاهق. بل ان ومضة البرق جعلتني اكتشفق ان درجات السلم ليست متساوية في الطول وان قدمي كانت في تلك اللحظة على بعد اصبعين من الهاوية.

اذن فهذا هو الدرج الممتاز! وفكرت ومع التفكير عصف بنفسي نوع من الجرأة الغاضبة. اذن فقد ارسلني عمي الى هنا ليعرضني الى اخطار شديدة. وربما الموت. فأقسمت ان اتوصل الى الحقيقة حتى لو كلفني الامر حياتي.

فبدأت الصعود زاحفاً على يدي وركبتي ببطء القواقع، متلمساً كل شبر امامي ومختبراً صلابة كل صخرة قبل ان أدوس عليها. ومضيت اصعد السلم. بدت الظلمة اشد من ذي قبل. ولم يقتصر الامر على الظلام، بل كان هناك خفق اجنحة الخفافيش التي تتطاير اسراباً من حولي وتكاد تلامس وجهي وجسمي.

نسيت ان اقول ان البرج مربع الشكل، وفي كل زاوية وضعت درجة

كبيرة مختلفة بالشكل تربط الدرجات العادية كنت قد وصلت الى احدى هذه الزوايا. وعندما مددت يدي لاتحسس الدرجة قبل النزول، كعادتي، انزلقت يدي من فوق الحافة الى فراغ ماوراءه سوى الهاوية. لم يكن السلم يصل الى اعلى من ذلك الحد: اي ان ارسال شخص غريب لصعود السلم في الظلام يعني ارساله الى حتفه. (شكراً لوميض البرق ولطريقتي الحذرة في الصعود فلولاهما لكنت في عداد الموتى). ان مجرد التفكير بالخطر الذي كان يتهددني والارتفاع الشاهق الذي كنت سأهوي منه جعل العرق يتصبب من جسمي وساقيّ لاتقويان على حملي.

لكني صرت اعرف الان مااريد واستدرت وبدأت انزل وفي قلبي غضب شديد. وكنت قد قطعت نصف المسافة حين عصفت الرياح بالبرج فاهتز البناء من شدتها. وتبعها مطر. وعندما وصلت الى الارض تقريباً كان المطر ينهمر كالسيل. اخرجت رأسي من باب البرج وتطلعت الى جهة المطبخ فرأيت الباب، الذي اوصدته حين جئت الى هنا، مفتوحاً يتسلل منه خيط من الضوء. ورأيت شبح انسان واقفاً تحت المطر ساكناً كأنه يصغي. في اللحظة التالية ومض برق ساطع تبينت على ضوئه عمي واقفاً حيث توقعت. واعقب البرق سلسلة من الرعود الشديدة.

وسواء ظن عمي ان الدوي هو صوت سقوطي او هو صوت الله يشجب الجريمة، فذلك امر متروك للحدس والتخمين. لكن الشيء الاكيد ان نوعاً من الرعب المذهل استولى عليه فاسرع الى البيت تاركاً الباب وراءه مفتوحاً. فتبعته بأشد مااستطيع من الهدوء ودخلت الى المطبخ دون ان يشعر بي ووقفت اراقبه.

كان قد اسرع حال دخوله الى فتح الخزانة التي في زاوية المطبخ واخرج منها زجاجة ويسكي كبيرة وجلس الى المائدة مولياً ظهره الي. كان يرتجف ويئن بين اونة واخرى فيرفع الزجاجة الى فمه ويأخذ جرعات كبيرة من الويسكي المركز.

تقدمت بضع خطوات حتى صرت وراءه تماماً.. وفجأة اطبقت بيدي

على كتفيه وصحت: «آها!)
فأطلق عمي صرخة مرعوبة مخنوقة كصرخة خروف يؤخذ للذبح، ورمى ذراعيه الى فوق وانهار ارضاً مثل جثة هامدة خفت من هذا المشهد بعض الشيء، لكنني كنت في تلك اللحظة افكر بنفسي، فتركته مطروحاً حيث هو. كانت المفاتيح معلقة بباب الخزانة فقررت ان اسلح نفسي قبل ان يعود عمي الى رشده والى خططه الشريرة. وجدت في الخزانة عدداً من القناني، بعضها قناني دواء، واكداساً من القوائم وغيرها من الوثائق ماكان لدي وقت كافٍ للاطلاع عليها، وبعض الضروريات التي ماكنت ابحث عنها في تلك اللحظة. فتركت الخزانة الى الصناديق. فوجدت الاول مملوء بالدقيق والثاني باكياس النقود والاوراق المشدودة بشكل رزم. اما الثالث ففيه اشياء كثيرة (اغلبها ثياب) من بينها خنجر جبلي صدىء قبيح الشكل بلا قراب، فأخذته وخبأته تحت سترتي، ثم التفت الى عمي.
كان مطروحاً حيث هوى مثل خرقة بالية وقد انثنت احدى ركبتيه الى اعلى وامتد احد ذراعيه على الارض. واكتسى وجهه بزرقة غريبة وبدا كأنه توقف عن التنفس خفت ان يكون قدمات فجئت بابريق ماء ورششته بقوة على وجهه فبدأت الحياة تدبّ فيه فحرك فمه قليلاً وحاول فتح اجفانه، واخيراً فتح عينيه ورآني فاستولى عليه رعب لامثيل له في الدنيا. قلت:
ـ هيا، هيا، اجلس.
فقال بصوت باكٍ:
ـ مازلت حياً؟ آه، يارجل، انت حي؟
قلت:
ـ كما تراني، لاعافاك الله!
بدأ يلتقط انفاسه بصعوبة. قال:
ـ الزجاجة الزرقاء.. في الخزانة.. الزجاجة الزرقاء.
وتباطأت انفاسه اكثر من ذي قبل.

ركضت الى الخزانة فوجدت فعلاً زجاجة دواء زرقاء لصقت عليها ورقة تحمل تفاصيل الجرعات فأعطيته جرعة منها بأقصى ما استطيع من سرعة. انتعش قليلاً فقال:

ـ نوبة.. عندي نوبة، ياديفي.. متاعب القلب. حملته واجلسته على كرسي ورحت انظر اليه. الحق اني شعرت ببعض الشفقة على رجل بهذه الدرجة من المرض، لكن قلبي كان يفيض غضباً، ولي الحق في ذلك، فعددت له النقاط التي اردت ايضاحها: لماذا كذب علي في كل كلمة قالها: لماذا خاف ان اغادر البيت. لماذا امتعظ حين اشرت الى انه وابي قد يكونا توأمين، ألأن هذا صحيح؟ وسألته لماذا اعطاني نقوداً انا مقتنع بأني لااستحقها ولا اطالب بها، واخيراً، واهم من هذا وذاك، لماذا حاول قتلي.

اصغى الي بصمت ثم توسل الي بصوت ذليل ان ادعه يذهب الى فراشه قائلاً:

ـ ساخبرك في الصباح. سافعل حتماً.

كان من الضعف والوهن ماجعلني اوافق. لكني حبسته في غرفته وحملت المفاتيح معي. وعدت الى المطبخ فاشعلت ناراً كبيرة لم يشهد لها المطبخ مثيلاً منذ سنين طويلة. ثم لففت نفسي بمعطفي وتمددت على الصناديق.. وسرعان ماغرقت في النوم.

الفصل الخامس

(الذهاب الى عبّارة الملكة)



هطل مطر غزير في الليل، وهبت في صباح اليوم التالي ريح شتوية شديدة البرودة من الشمال الغربي، دافعة امامها اشتات الغيوم، نهضت من نومي قبل ان تطل الشمس من وراء التلال او يتوارى اخر النجوم من السماء. ومضيت الى جانب الغدير فغطست في بركة عميقة. وملأتني السباحة نشاطاً وبرداً فجلست ثانية قرب النار بعدما غذيتها ببعض الخشب ورحت افكر في وضعي.

لم يعد هناك شك الان بأن عمي يضمر لي العداوة وما من شك بأني صرت احمل روحي على راحة يدي. فهو لن يترك وسيلة لتحطيمي. لكني كنت فتياً ومعنوياتي عالية وكنت اعتبر نفسي شديد الذكاء بعيد النظر مثل اغلب الصبيان الريفيين. جئت الى دار عمي، لا افضل حالاً من

شحاذ ولا اكبر سناً من طفل، فاستقبلني بالغدر والعنف، فهل من نتيجة افضل من أن اكون انا صاحب الامر واسوقه امامي كما يساق قطيع الاغنام!

جلست هناك محتضناً احدى ركبتي انظر للنار باسماً فتخيلت نفسي اكتشف اسراره واحداً بعد اخر وازداد قوة وسيطرة حتى اصبح ملكاً وحاكماً على ذلك الرجل. يقولون ان عراف ايسندين صنع مرآة يستطيع الناس قراءة مستقبلهم فيها. لابد ان المرآة صنعت من مادة اخرى غير الفحم المشتعل، لأني وانا جالس احدق في النار، لم ار بين كل الاشكال والصور التي تراءت لي، صورة سفينة ولاصورة ملاح بقلنسوة خشنة ولاهراوة ضخمة تنزل على رأسي الاحمق ولا اية اشارة الى تلك المحن التي كانت في انتظاري.

امتلأت نفسي بالاوهام فانطلقت من توّي الى الطابق الثاني لأطلق سراح سجيني. حياني تحية الصباح بلطف فرددت له التحية بمثلها وانا ابتسم له من قمة غروري. وسرعان ماجلسنا الى مائدة الفطور وكأن شيئاً لم يكن قلت بلهجة ساخرة:

ـ حسناً ياسيدي، اما عندك شيء تقوله؟

ولما رأيته حائراً، اذ لم يجب بأكثر من:

ـ اظن اننا سنفهم بعضنا بعضاً بمرور الزمن. مضيت قائلاً:

ـ تصورتني ريفياً ساذجاً لاحول له ولاقوة، وانا تصورتك رجلاً طيباً، اولست اشد سوء من الاخرين على الاقل. ماالذي يدعوك الى الخوف مني، الى خداعي والى محاولة قتلي..

غمغم قائلاً انها دعابة وانه يحب المزاح، ولما رآني ابتسم غير لهجته واكد لي ان كل شيء سيتضح حال ما ننتهي من تناول الفطور، قرأت في وجهه انه لم يكن يبيت لي خدعة جديدة، ولو ان الامر لم يكن صعباً عليه، وكنت على وشك ان اصارحه برأيي حين قطع علينا الحديث صوت دقّ على الباب.

طلبت من عمي ان يمكث حيث هو وذهبت لفتح الباب فاذا بصبي قصير هزيل بملابس البحارة، ما ان رآني حتى راح يؤدي بعض حركات رقصة موسيقى القرب البحرية (لم اسمعها ولم ارَ الرقصة قط من قبل) وصار يطقطق اصابعه في الهواء ويحرك قدميه راقصاً ببراعة. ورغم هذا ظل جلده مزرقاً من البرد وعلى وجهه تعبير هو بين البكاء والضحك. كان منظره محزناً للغاية لايتناسب مع هذا التصرف المرح. يقول بصوت مبحوح:

ـ كيف حالك يارفيقي؟

سألته بهدوء عما يرغب، فيقول:

ـ اوه، ما ارغب!

ثم بدأ يغني:

لأنها فرحتي
في ليلة مقمرة
في الصيف

قلت:

ـ حسناً، اذا لم يكن عندك ماتقوله فسوف اتجاهل الاصول واسد الباب بوجهك.

فصاح:

ـ صبراً ياأخي! الا تحب المزاح! اتريدهم ان يجلدوني؟ جئت برسالة من [هيزي ـ اوزي] العجوز الى المستر [بيلفلاور] ـ واخرج لي رسالة واضاف:

ـ اقول لك يارفيقي... اكاد اموت جوعاً.

قلت:

ـ حسناً، ادخل، ساجعلك تأكل لقمة حتى لو كانت لقمتي انا.

وجئت به الى المطبخ واجلسته في مكاني فانهال على بقايا الفطور بنهم شديد وهو يغمز لي بين حين واخر، ويقطب حاجبيه وغير ذلك من

الحركات التي يعتبرها هذا المخلوق المسكين دليلاً على الرجولة. كان عمي قد فرغ من قراءة الرسالة واستغرق في التفكير. وفجأة هبّ واقفاً وقد طفح وجهه بالفرح وجرني الى ابعد زاوية في الغرفة وقال، واضعاً الرسالة في يدي:

اقرأ هذه.

هاهي الرسالة امامي وانا اكتب الان قصتي:

خان الزعرور ـ في منطقة عبّارة الملكة

سيدي.

سفينتي راسية هنا الان، وقد ارسلت لك خادمي ليخبرك، اذا كانت لديك اية اوامر لما وراء البحار فاليوم هو اخر فرصة، لأن الريح مواتية، لا اخفي عليك ان عندي بعض الاختلافات مع وكيلك، المستر [رازكيللر] اذا لم تبادر الى تسويتها فسوف تتعرض لبعض الخسائر. لقد قدمت لك قائمة بالديون التي عليك محسوبة باقل كلفة.

ودم لخادمك المتواضع المطيع

«الياس هوسيزن»

قال عمي بعدما رأى اني فرغت من قراءة الرسالة:

ـ تلاحظ ياديفي اني عقدت صفقة مع هذا الرجل [هوسيزن]، قبطان السفينة التجارية كوفنانت (العهد او الميثاق). فاذا امكن ان نذهب انا وانت وهذا الولد فقد استطيع رؤية القبطان في خان الزعرور او ربما على سطح السفينة لأرى ان كانت هناك اوراق تحتاج الى توقيعي. وحتى لانضيع الوقت يمكن ان نمر بطريقنا على المحامي [المستر رانكيللر]. بعد الذي حصل قد لاتصدق ماأقوله حتى لو اقسمت لك، لكنك ستصدق رانكيللر، فهو وكيل اعمال العديد من وجهاء المنطقة. رجل كبير في السن: ولذا فهو محترم جداً. وكان يعرف والدك.

لبثت برهة افكر. سأذهب الى مكان لشحن البضائع لابد انه مزدحم

بالناس بحيث لايجرؤ عمي على ايذائي امامهم. يضاف الى ذلك ان وجود صبي القبطان معي بمثابة حماية لي. وفكرت انه متى ماوصلنا الى هناك استطيع ان اجبر عمي على زيارة المحامي، حتى لو كان يخدعني باقتراحه هذا. وقد اكون في قرارة نفسي، راغباً في رؤية البحر والسفن عن قرب. تذكروا اني عشت حتى الان في التلال ولم ار البوغاز البحري، الذي يشبه ارضية زرقاء والسفن الشراعية التي تتراقص على سطحه كأنها لعب، الا منذ يومين. لهذا السبب او ذاك حزمت امري فقلت:

ـ حسن جداً، لنذهب الى العبّارة.

لبس عمي معطفه وقبعته وشد الى حزامه سيفاً قديماً صدئاً، ثم اطفأنا النار واقفلنا الباب وانطلقنا.

راحت الريح الباردة التي تهب من الناحية الشمالية الغربية تلفح وجوهنا. كنا في شهر حزيران والاعشاب تكسوها الزهور البرية وبراعم الاشجار تتفتح. ولكن ازرقاق الدم في اظافرنا والوجع في اطراف اصابعنا يقول كأننا لانزال في الشتاء وكأن الصفاء الذي يحيط بنا هو جليد شهر كانون.

عبر العم ابنزر الخندق متمايلاً من جانب الى جانب مثل فلاح عجوز عائد الى البيت بعد تعب النهار. لم يقل كلمة واحدة طول الطريق فاضطررت الى التحدث مع صبي القبطان فاخبرني بان اسمه رانسم (يعني فدية) وانه ركب البحر منذ كان في التاسعة، لكنه لم يستطع ان يذكر كم هو عمره لأنه اضاع عد السنين. وكشف عن صدره امام الريح القارسة ليريني صور وشم، رغم اعتراضاتي خشية ان يقتله البرد، وكان يسبّ سباباً قبيحاً كلما تذكر شيئاً، ولكنه كان اقرب الى تلميذ غبي منه الى رجل، وادعى انه قام بالكثير من الاعمال الغريبة السيئة.. سرقات واختلاسات وتلفيق تهم... اجل.. وحتى جرائم قتل. انما راح يرويها مقرونة بتفاصيل غير معقولة من جهة وبطريقة مترددة مرتبكة من جهة اخرى بما جعلني ارثي له، لااصدقه.

سألته عن السفينة فقال: (انها احسن سفينة على سطح البحر) وعن قبطانها [هوسيزن] ففراح يمدحه بصوت عال كله حماس. ان [هيزي - اوزي] - كما يحلو للصبي ان يسمي سيده القبطان - رجل لايؤمن بجنة او نار. رجل كما يقول الناس، «لاشفاعة له يوم القيامة» خشن شرس عديم الذمة والضمير ودموي. وقد ربى الصبي الخادم المسكين نفسه على الاعجاب بكل هذه الصفات على انها من صفات الملاحين والرجال الاشداء. نقطة ضعف واحدة يسجلها على «مثله الاعلى»، هي انه ليس بملاح، واعترف قائلاً:

- المستر شوان هو الذي يقود دفة السفينة. احسن الملاحين كافة، الا اذا سكر. صدقني! هاك انظر - وازاح جوربه فرأيت جرحاً عميقاً كبيراً غير ملتئم فجمد الدم في عروقي - وقال بلهجة تفاخر:

- هو جرحني المستر شوان فهل هذا.

فصرخت:

- ماذا اتلقى مثل هذه المعاملة الوحشية على يديه؟

لماذا، هل انت عبد مملوك يعاملك بهذه الطريقة! ففقال الصبي المغفل المسكين مغيراً لهجته في الحال:

- كلا. ساعلمه انظر (واراني سكيناً كبيرة في غمد قال انه سرقها) آه، لأرَ كيف يحاول، اتحداه ان يفعل. سالقنه درساً! اه، لن يكون اول واحد! وشفع كلامه بقسم قبيح سخيف بائس.

لم اشعر بالرثاء لأحد في هذا العالم الواسع بقدر ماشعرت لهـذا المخلوق الاحمق. وبدأت ارى في السفينة كوفنانت (الميثاق او العهد) جحيماً يطوف البحار (رغم مايـدل اسمها عليـه من شرف وفضيلة).

سألته:

- اما عندك اصدقاء؟

فاخبرني بأن اباه عمل في ميناء انكليزي - نسيت اسمه، وقال:

- كان رجلاً طيباً ايضاً. لكنه مات.

فصحت به:
ـ بالله عليك الا يمكنك العثور على حياة كريمة على اليابسة؟
فاجاب وهو يغمز وينظر الي بمكر شديد:
ـ لا، لا. يعلموني مهنة من المهن؟ اعرف حيلة تعادل مهنتين... اعرف!

سألته إن كانت هناك مهنة يمكن ان تكون ابشع من عمله الحالي الذي يشكل خطراً مستمراً على حياته، لا من الرياح والبحر فقط، بل ومن قسوة سادته وبربريتهم.

فقال ان ماذكرته صحيح تماماً، وبدأ يطري حياة البر ويصف سعادته بالنزول الى اليابسة وفي جيبه فلوس ينفقها مثل الرجال، ويشتري تفاحاً وعصا للزينة يفاجىء بها الصبيان الوقحين. ويقول:
ـ المسألة ليست بهذه الدرجة من السوء، على اية حال هنا من هم اسوأ مني.. هناك جماعة العشرين باون.. اللعنة! ليتك ترى كيف يتصرفون. مرة رأيت واحداً في مثل عمرك. يمكنني القول (كنت كبير السن في نظره) آه، كان ذا لحية ايضاً، حسناً.. وحال ماخرجنا من النهر، وصحا هو من السكر.. رباه! كيف راح يصرخ ويعربد! صرت اضحك عليه، صدقني! ثم هناك الاولاد الصغار ايضاً. اوه، صغار الى جانبي! صدقني.

وانا المشرف عليهم. حين يكون معنا صغار احمل انا معي حبلاً لربطهم.

واستمر على هذا المنوال الى ان فهمت انه يقصد بجماعة العشرين باوناً اولئك المجرمين التعساء الذين يباعون عبيداً للمزارع في امريكا الشمالية، او اولئك الابرياء الاشد تعاسة الذين يختطفون او يخدعون (الكلمة الدارجة بين الناس) خدمة لبعض الاغراض او انتقاماً.

وصلنا، في تلك اللحظة، الى اعلى التل فبدت تحتنا العبّارة والمرفأ. في هذه النقطة يضيق بوغاز فورث البحري (كما يسميه الناس) فلا يزيد عرضه على عرض نهر مما يسمح بعبوره بلا صعوبة. ويتقوس من الناحية الشمالية ليكون مرفأ لكل انواع السفن. وتمتد في وسط البوغاز

جزيرة صغيرة عليها بعض الخرائب، وبنوا على الساحل الجنوبي رصيفاً لخدمة العبّارة ويقوم في نهاية الرصيف على الجانب المقابل من الطريق، بناء تحيط به حديقة جميلة من اشجار بعض انواع الصنوبر والزعرور، يطلقون عليه اسم «خان الزعرور».

وتبدو عن بعد من جهة الغرب مدينة (كوينزفيري) وكانت المنطقة القريبة من الخان شبه خالية من الناس في تلك الساعة، لأن العبّارة كانت قد غادرت الرصيف حاملة ركاباً الى الجهة الشمالية من البوغاز. كان ثمة مركب شراعي صغير مايزال واقفاً عند الرصيف، على سطحه بعض البحارة غارقين في النوم. قال لي رانسم انه قارب السفينة في انتظار عودة القبطان، واشار الى سفينة راسية وحدها على بعد نصف ميل قائلاً انها الكوڤنانت. رأيت حركة دائبة على سطحها والبحارة يأخذون اماكنهم امام حبال الاشرعة. كانت الريح تهب من تلك الناحية فاستطعت ان اسمع غناء البحارة وهم يجرون الحبال، كانت سفينة كريهة الشكل فشعرت في اعماقي برثاء لأولئك المساكين الذين يبحرون على ظهرها.

كنا الثلاثة قد بدأنا بالانحدار من على المرتفع. ولما وصلنا الى الطريق مضيت اخاطب عمي قائلاً.

ـ ارى من الصواب ان اخبرك ياسيدي بأنه مامن شيء يجعلني اميل الى الصعود الى ظهر السفينة كوڤنانت.

بدأ كمن يفيق من حلم فقال:

ـ ايه؟ ماهذا؟

فاعدت عليه ماقلته. قال:

ـ طيب، طيب. واجبنا ان نرضيك. المفروض. ولكن لماذا وقفنا هنا؟ البرد مهلك. ارى انهم يستعدون للابحار، اذا لم اكن مخطئاً.

الفصل السادس
(مصيبة عبّارة الملكة)



حال ماوصلنا الى الخان قادنا رانسم الى غرفة صغيرة في الطابق العلوي فيها سرير. وكانت هناك نار فحم متأججة في موقد جعلت الغرفة حارة جداً كأنها فرن. والى جانب المدخنة طاولة جلس اليها رجل طويل داكن اللون هادىء الملامح يكتب. كان مرتدياً سترة بحرية سميكة مزررة حتى الرقبة وقبعة واسعة من الفرو تصل الى اذنيه رغم حرارة الغرفة ومع ذلك فأنا لم ار في حياتي من قبل رجلاً، بمثل هذا البرود والمثابرة والاستغراق بالعمل كقبطان السفينة هذا.

هب واقفاً حال دخولنا وتقدم ماداً كفه الكبيرة لمصافحة ابنزر وقال بصوت عميق لطيف:

ـ انا فخور برؤيتك يا مستر بالفور ويسعدني انك جئت في القوت

المناسب، الريح مواتية والمد في احسن احواله وسوف نصل الى (جزيرة مي) قبل حلول الليل.
فرد عليه عمي:
ـ كابتن هوسيزن.. غرفتك حارة جداً.
فقال القبطان:
ـ هذه عادتي يامستر بالفور، انا بطبيعتي لااتحمل البـرد. دمي بارد ياسيدي، لا الفراء ولا الثياب السميكة ،لاسيدي، حتى ولا الخمر، يمكن ان ترفع درجة حرارتي. هذه ياسيدي، نفس حالة جميع من اكتوى ـ كما يقولون ـ بنار البحار الاستوائية قال عمي:
ـ حسناً، حسناً. هكذا خلقنا وهكذا يجب ان نكون .

لكن الذي حصل ان مسألة عادات القبطان كـان لها دور كبـير في مالحقني من سوء واذى. اذ كنت قد اقسمت مع نفسي ان لااد ع قريبي يغيب عن ناظري لحظة، غير ان رغبتي الملحة برؤيـة البحر عن كثب والخروج من الغرفة الصغيرة الخانقة جعلتني انسى مكـر عمي حين اقترح علي بأن اخرج للنزهة قليلاً.

فغادرت الغرفة تاركاً الرجلين جالسين الى زجاجة خمر وكمية كبيرة من الاوراق والوثائق، وعبرت الى الجهة الاخرى من الطريق ومضيت الى شاطىء البحر. كانت الريح هادئة في تلك البقعة تضرب وجه الماء فتصنع امواجاً صغيرة، كتلك التي يحدثها القاء حجارة في بركة، سرعان ماتتكسر وتتلاشى على الشاطىء، لكن الطحالب كانت جديدة علي. فبعضها اخضر وبعض بني اللون ذو خيوط طويلة وبعض الطحالب فيها انتفاخات مثل الاكياس المائية. وكانت رائحة ماء البحر قوية نفاذة يشمها الانسان من مسافة بعيدة. رأيت السفينة كوفنانت تبدأ بفك اشرعتها تمهيداً لنشرها، فأثار هذا المنظر في نفسي رغبة بالسفر ورؤية الاماكن الجديدة البعيدة.

ورحت انظر الى بحارة المركب: رجال ضخام سمر اللون، بعضهم بالقمصان والبعض بـالسترات وحـول رقابهم منـاديل ملـونة ورأيت

احدهم يحمل زوجاً من المسدسات داخل حزامه واثنين او ثلاثة يحملون هراوات، وكلهم يحملون سكاكين باغماد في احزمتهم. قضيت جانباً من النهار مع واحد منهم بدا لي اقل شراً من الاخرين. وسألته عن موعد ابحار السفينة فقال: حال مايرتفع المد وقال انه يتعجل مغادرة ميناء كهذا لاحانات فيه ولا قمار.

وكان يشفع كلامه بسباب بشع جعلني اسرع بالابتعاد عنه.

هذه المسألة جعلتني اعود الى رانسم، الذي كان اقل الجميع شراً على مايبدو. وما ان رآني حتى جاءني راكضاً من الخان طالباً ان اشتري له كأس خمر. فقلت له اني لااشتري خمراً له او لي لأننا لسنا بالسن التي يجوز فيها تعاطي المسكرات. وقلت:

ـ لكن يمكنك الحصول على قدح من البيرة الخفيفة، واهلاً وسهلاً.

فسخر مما عرضته وشتمني، ولكنه فرح بقدح البيرة على كل حال. وسرعان ماجلسنا الى مائدة في الغرفة الامامية من الخان ورحنا نأكل ونشرب بشهية مفتوحة.

وهنا خطر على بالي ان اعقد صداقة مع صاحب الخان الذي هو من ابناء تلك المنطقة. فدعوته الى تناول الطعام والشراب معنا ـ كما هي عادة الناس هنا ـ لكنه رفض لأنه اكبر بكثير من الجلوس الى مائدة زبائن فقراء مثلنا انا ورانسم، وهم بمغادرة الغرفة حين ناديته لأسالـه عن المستر رانكيللر المحامي. فيجيب:

ـ عجباً، نعم اعرفه. رجل في غاية الامانة و.. ثم يقول:

ـ آه، بالمناسبة، انت الذي جاء مع ابنزر؟

وعندما اجبته بالايجاب سألني:

ـ انت لست من اصدقائه؟

ويعني بالطريقة السكوتلاندية. احد اقاربه. ولما اجبته بالنفي، قال:

ـ هكذا قلت لنفسي، ومع ذلك فيك بعض الشبه المستر الكسندر.

قلت له ان ابنزر يتمتع بسمعة سيئة في البلد على مايبدو فقال صاحب

الخان:

ـ بلاشك. هو عجوز شرير. وكثيرون يتمنون ان يروهمعلقاً بحبل المشنقة. جينيت كلاوستن وكثيرون غيرها ممن شردهم من منازلهم واراضيهم. مع ذلك فقد كان في يوم من الايام شاباً جميلاً. لكن هذا كان قبل ان ينتشر خبر بين الناس عن مصير المستر الكساندر.

سألته:

ـ ماذا كان الخبر؟

فاجاب:

ـ مجرد خبر يقول انه قتله. الم تسمع به من قبل؟

قلت:

ـ ولم قتله؟

اجاب:

ـ وهل هناك من سبب سوى الاستيلاء على المكان.

قلت:

ـ المكان؟ قصر آل شوز؟

فقال:

ـ لااعرف مكاناً اخر سواه

قلت:

ـ يارجل؟ اهكذا؟ اكان والـ... أكان الكساندر الاخ الاكبر؟

فاجاب صاحب الخان:

ـ حتماً. والا لماذا قتله؟

قال هذا وذهب، لأنه كان يريد الذهاب منذ البداية.

انا حدست هذا قبل مدة طويلة بالطبع. لكني كنت بحاجة الى التأكد.

اذهلتني هذه الحقيقة، اذن فالصبي الفقير المغطى بالغبار. الذي جاء من منطقة (غابة ايتريك) قبل اقل من يومين، هو الان واحد من اثرياء الدنيا وعنده قصر واملاك واسعة. فان احسن التصرف اصبح سيد

القصر غداً. ازدحم رأسي بهذه الافكار الجميلة وبمئـات غيرهـا. وانا جالس انظر من النافذة وبالي مشغول عما ارى. كل ما اذكر اني رأيت الكابتن هوسيزن عند الرصيف يصدر بعض الاوامر الى ملاحيه. توجه عائداً في الحال الى الخان يمشي بقوة وحيوية بقامته الطويلة الجميلة ووجهه الهادىء الذي ترتسم عليه علائم الوقار والجدية. وعجبت كيف يمكن ان تكون حكايات رانسم صحيحة! فقد بدت لي غير معقولة مع رجل له هذه الملامح. انما هو لم يكن بالحقيقة انساناً طيباً كما تصورته انا ولا سيئاً تماماً كما وصفه رانسم وذلك لأنه كان الاثنين في آن واحد. وينتهي الشخص الطيب فيه حال مايضع قدمه على سطح السفينة.

الشيء الثاني هو اني سمعت عمي يناديني من الطريق حيث رأيته واقفاً مع القبطان. فخاطبني هذا بلهجة من يخاطب نداً (وفي هذا مجاملة زائدة لصبي في مثل سني). قال:

- المستر بالفور حدثني عنك. باعجاب شديد ياسيدي، وانا شخصيـاً معجب بك. كم كان بودي ان اعقد معك صداقة حميمة لولا ضيق الوقت. لكن هذا لايمنعنا من اغتنـام الفرصـة مادمنـا هنا. تفضـل الى ظهر سفينتي لمدة نصف ساعة الى ان يرتفع المد لنشرب نخباً.

- كنت متشوقاً لرؤية داخل السفينة بما تعجز عنه الكلمات، لكني لم اكن لألقي بنفسي في التهلكة فقلت له اننا، انا وعمي على موعد مع المحامي.

قال:

— اي، اي. اخبرني بذلك. لكن اسمعني.. سأجعل القارب يعود بك الى الرصيف. المسافة بضع خطوات من هناك الى بيت المستر رانكيللر.

ثم مال برأسه علي فجأة وهمس في اذني:

- حذار من الثعلب العجوز. يريد بك شراً. تعال الى السفينة. لي كلام معك.

ثم تأبط ذراعي وقال بصوت عالٍ وهو يتوجه صوب القارب:

- تعال... قل لي ماذا تريد ان اجلب لك من امريكا؟

اي صديق من اصدقاء المستر بالفور يستطيع ان يأمر. حزمة اوراق تبغ؟ زينات هندية من الريش؟ جلد حيوان مفترس؟ غليون من الصخر؟ ببغاء يقلد كل الاصوات ويموء كالقطط؟ طائر كاردينال احمر بلون الدم؟ اختر ماتشاء على هواك.

وصلنا في تلك اللحظة الى جانب فأمر احد البحارة ان يساعدني على الصعود. لحظتها ماكنت افكر بالتراجع، متوهماً (لشدة حماقتي) اني عثرت على صديق وعون طيب وكدت اطير من الفرح لزيارة السفينة. حال ماأخذنا اماكننا في القارب حتى انزلق على صفحة الماء مبتعداً عن الرصيف. وبالشدة فرحي ودهشتي بهذه الحركة الجديدة وهذا القرب الشديد من الماء، وابتعاد الشاطيء وازدياد ضخامة السفينة كلما اقتربنا اكثر، حتى أني لم اكد افهم ماقاله القبطان او ادري بماذا اجبته.

حال ماوصلنا الى جانب السفينة (حيث رحت من مكاني في القارب انظر مدهوشاً الى ضخامتها وارتفاعها واصغي الى طنين الامواج التي تلطم جوانبها والى صيحات البحارة البهيجة وهم يتراكضون على السطح ينجزون اعمالهم) اعلن هوسيزن اننا ـ هووأنا ـ اول من يصعد وامر بانزال شبكة بكرة من السطح الرئيسي. دفعوني الى داخلها فطارت بي في الهواء لتهبط على سطح السفينة، حيث كان القبطان في انتظاري ليتأبط ذراعي وقفت هناك بعض الوقت فشعرت بشيء من الدوار لأن كل شيء من حولي يتأجج. وربما بشيء من الخوف، لكنني كنت فرحاً كل الفرح لرؤية الاشياء الغريبة التي من حولي. فيما راح القبطان يشير الى اشد الاشياء غرابة ويخبرني بأسمائها واغراضها، وفجأة سألته:

ـ لكن اين عمي؟

فاجاب هوسيزن بعبوس مفاجيء:

ـ اي. تلك هي النقطة.

شعرت بأني ضعت، فسحبت ذراعي من تحت ابط الرجل بكل ما

عندي من قوة وركضت الى سياج السفينة. من هناك رأيت بأم عيني القارب يبتعد نحو الشاطيء وعمي جالس في مقدمته. صرخت بصوت مرعوب تردد صداه في الشاطيء:

ـ النجدة، النجدة! جريمة قتل!

فالتفت عمي ونظر الي بوجه يفيض كراهية وقسوة.

كان ذلك اخر ماشاهدته. اذ سرعان ماامتدت الي اذرع قوية فانتزعتني من سياج السفينة. وفي تلك اللحظة شعرت كأن صاعقة ضربتني. فقد برق امام عيني وميض حاد ووقعت فاقد الوعي.

الفصل السابع

(الى البحر في سفينة العبيد كوفنانت)



عدت الى وعيي وسط الظلام فوجدتني مقيد اليدين والرجلين تسحقني الالام وتطن في اذني اصوات صاخبة غير مألوفة: ويدوي في اذني زئير الامواج وهي تصطدم بمقدمة السفينة فيتطاير رشاش الماء من حولها بغزارة. والريح تعصف بالاشرعة والبحارة يطلقون الصرخات الحادة. احسست بالعالم كله يعلو ويهبط ويدور. وكان جسمي عليلاً موجعاً وتفكيري مشلولاً حتى اني قضيت وقتاً طويلاً احاول ترتيب افكاري فتمنعني الاوجاع من ذلك، ثم ادركت اخيراً اني مقيد ومطروح في مكان ما من جوف السفينة المنحوسة وان الريح آخذة بالاشتداد. حين ادركت محنتي بوضوح انتابني يأس قاتل ورحت الوم نفسي على حماقتي، وتملكني غضب شديد على عمي

جعلني افقد وعيي ثانية.

حين عدت الى الحياة ثانية استقبلني نفس الهدير والحركات العنيفة المؤذية التي راحت تهزني بقوة. وسرعان ماهاجمني دوار البحر، الى جانب مااعانيه من الم ويأس في تلك الفترة من ايام صباي الحافلة بالمغامرة عانيت الكثير من المشاق والمصاعب، لكن اياً منها لم يسحق روحي وجسدي، او يجعل الدنيا تظلم في عيني مثل الساعات الاولى القليلة لوجودي على ظهر السفينة السجن.

سمعت اطلاقة مدفع فافترضت ان العاصفة قد حاصرتنا واننا نطلق اشارات الاستغاثة. فرحبت بفكرة الخلاص حتى لو كان بالموت غرقاً. الا ان الامر لم يكن كذلك. وانما (كما علمت فيما بعد) هي واحدة من عادات القبطان المألوفة ماذكرتها هنا الان الا لأبين انه حتى الاشرار يمكن ان يتصرفوا كالاطفال. فقد تبين اننا كنا مارين على بعد بضعة اميال من مدينة (دايسارت) حيث بنيت السفينة وحيث جاءت السيدة هوسيزن العجوز، والدة القبطان، منذ سنين لتقيم. وسواء كانت السفينة مارة على المدينة اثناء النهار في رحيلها او عودتها فهي لابد ان تطلق اطلاقة مدفع وترفع الاعلام تحية.

فقدت الاحساس بالزمن. فالليل والنهار سواء في تلك الحجرة العفنة في حوف السفينة حيث اقبع. وزاد في مرور الوقت ببطء مااعانيه من بؤس. وهكذا لبثت طويلاً انتظر ان تصطدم السفينة ببعض الصخور وتتحطم او تنتكس وتهوي الى قاع البحر لاادري كم من الوقت مضى، حتى جاء النعاس ليسرق مني احزاني.

استيقظت على ضوء قريب من وجهي. رأيت رجلاً ضئيل الجسم ذا عينين خضراوين وشعر اشقر غزير واقفاً ينظر الي. قال:

ـ ها.. كيف تسير الامور؟

فاجبت ببكاء.. فقام زائري بجس نبضي ووضع يده على جبيني. ثم

شرع يغسل ويعالج الجرح الذي في رأسي. قال:

ـ اوه، مجرد ضربة، ماهذا يارجل؟ لاتحزن! هذه ليست نهاية العالم. انت بدأت بداية سيئة. لكنك ستحسن التصرف هذه المرة، الم تأكل شيئاً من اللحم؟

قلت له اني لااطيق رؤيته فاعطاني قليلاً من البراندي والماء في كوب من الصفيح، وتركني لوحدتي مرة اخرى حين جاء ليراني ثانية كنت مطروحاً ارضاً بين النوم واليقظة وعيناي مفتوحتان على وسعهما في الظلمة . كنت تخلصت من دوار البحر كلياً ، لكن دواراً آخر فظيعاً داهمني بشكل لايقل سوء عن سابقه. وكانت اطرافي تألمني والحبل الذي قيدوني به يحز في يدي ورجلي مثل النار. واصبحت عفونة الحجرة التي رموني فيها جزءاً مني. ثم ان رعباً شديداً استولى علي من فئران السفينة التي تتراكض قطعاناً من حولي، وتتقافز من فوق وجهي احياناً، ومن التصورات والمخاوف السوداء التي ترافق الحمى.

سطع ضوء السراج من فتحة باب القفص الذي سجنوني فيه، كأنه شمس الله. ورغم اني لم اتبين على ضوئه سوى بعض دعائم السفينة القوية الداكنة. فقد صحت فرحاً باعلى صوتي. نزل الرجل ذو العينين الخضراوين السلم اولاً، ولاحظت انه لم يكن متوازناً في مشيه. وجاء في اعقابه القبطان.. لم يقل اي منهما كلمة. غير ان الاول ركع بجانبي وفحصني وداوى جرحي كالسابق بينما راح هوسيزن يحدق في وجهي بنظرة سوداء شريرة. قال الاول:

ـ انظر بنفسك الان ياسيدي. حمى عالية، فقدان شهية، لانور، لالحم. لاحظ بنفسك مايعني هذا.

فقال القبطان:

ـ انا لست ساحراً يامستر [ري ـ آتش](*)

قال ري ـ آتش:

ـ اسمح لي ياسيدي. انت رجل عاقل.. وعندك لسان سكوتلاندي فصيح. لكني لن اترك لك فرصة للتملص. أريد ان ينقل هذا الصبي من هذا القفص الى عنبر نوم البحارة.

فرد عليه القبطان قائلاً:

ـ ماتريده ياسيدي امر لايهم احداً غيرك. انما اقول لك مايجب. هنا هو وهنا سيبقى.

قال الاخر:

ـ اعترف بانك قبضت مبلغاً غير قليل. انا استميحك العذر لأن اقول بتواضع اني لم اقبض شيئاً. نعم انا اقبض، لكن لاشيء سوى راتب الضابط الثاني لهذا المركب العتيق. وانت تدري جيداً كم ابذل من جهد للحصول على هذا الراتب. اما غير ذلك فلا اتقاضى عنه شيئاً.

فرد عليه ربان السفينة:

ـ لو ابتعدت عن العواطف الرخيصة فلا شكوى لي منك.

وبدلاً من اللف والدوران اقول لك بكل صراحة: اهتم بشؤونك انت. علينا ان نعود الى سطح السفينة. ووضع قدمه على السلم لكن المستر ري ـ آتش جره من كم سترته. وقال:

ـ اعترف بأنك قبضت ثمن ارتكاب جريمة قتل.

فالتفت اليه هوسيزن غاضباً وصرخ فيه:

ـ ماهذا؟ ماهذا الكلام؟

فقال المستر ري ـ آتش وهو ينظر اليه بتحد:

ـ يبدو ان هذا هو الكلام الذي تفهم.

فأجاب القبطان:

ـ مستر ري ـ آتش.. لقد ابحرت معي ثلاث سنوات.

وكان عليك طوال ذلك الوقت ان تفهمني ياسيدي. انا رجل خشن، رجل عنيد، ولكن تباً، تباً لما قلته الان! كلام لايصدر الا من قلب حقود وضمير اسود. تقول ان الصبي سيموت..

فقال المستر ري ـ آتش .
ـ أجل، سيموت!
قال هوسيزن:
ـ حسناً، ياسيدي اما كفاك كلاماً؟ طر به الى اي مكان يعجبك!

ومضى القبطان يصعد الدرج. اما انا الذي لبث صامتاً طوال هذه المحادثة الغريبة، فقد رأيت المستر ري ـ آتش يستدير نحوه وينحني له بطريقة ساخرة. لقد خرجت باستنتاجين حينذاك، حتى وانا فريسة الدوار والحمى،، هما ان الرجل كان سكراناً، كما اشار الى ذلك القبطان، وانه (سكراناً كان ام صاحياً) يمكن أن يكون صديقاً لايقدر بثمن.

بعد خمس دقائق قطعت قيودي وحملت على ظهر احد البحارة الى عنبر النوم حيث وضعت على سرير جداري مغطى ببعض البطانيات البحرية. فكان اول شيء افعله هو ان اغيب عن الوعي.

كانت نعمة حقاً أن افتح عيني ثانية على ضوء النهار، وان اجد نفسي بصحبة بشر. كان عنبر النوم قاعة واسعة تقوم على جانبيها مضاجع فيها بعض بحارة الحراسة الداخلية يدخنون وبعضهم نائمون. ولما كان النهار رائقاً والريح رخاء (معتدلة)، فقد فتح غطاء السقف. لم يكن ضوء النهار وحده، بل كانت حزم الضوء التي تنساب الى الداخل بين حين واخر، (كلما مالت السفينة) محملة بذرات الغبار، تبهر عيني وتملأ قلبي بهجة. وما ان تململت في مكاني حتى اسرع احد البحارة يحمل لي دواء اعده لي المستر ري ـ آتش لاشربه طالباً مني ان انام بلا حركة لكي اشفى بسرعة، وقال موضحاً:
ـ عظامك سليمة. ضربة على الرأس لاشيء.. يارجل. انا الذي اذاقك الضربة!

لبثت هنا سجين السرير اياماً طويلة لم استعد عافيتي خلالها

فقط، بل وتعرفت على زملائي في العنبر. كانوا جماعة من القساة حقاً، كما هو شأن اغلب البحارة، فهم رجال مجردون من كل الجوانب الطيبة في الحياة ومحكوم عليهم بمعايشة البحار القاسية والقباطنة الذين لايقلون قسوة. بل ان بعضهم عمل مع القراصنة وشاهد مايخجل اللسان عن ذكره وبعض هرب من سفن الاسطول وينتظره حبل المشنقة. وكانوا جميعاً مستعدين للانقلاب على اعز اصدقائهم. ومع ذلك فالايام التي قضيتها معهم في العنبر جعلتني اخجل من حكمي الاول عليهم، يوم تجنبت الحديث معهم عند رصيف الميناء، وكأنهم وحوش مفترسة. مامن انسان سيء كلياً، وانما لكل فرد مساوئه وحسناته ولم يكن نزلاء السفينة هؤلاء استثناء من القاعدة، هم اجلاف بالتأكيد، واشرار كما يفترض، ولكن عندهم حسنات كثيرة. فهم طيبون اذا عن لهم ان يكونوا، واشد بساطة وسذاجة من صبي ريفي مثلي وينطوون على بعض الامانة والصدق.

وكان هناك رجل، ربما من بين اربعين، يجلس الى جانب سريري ساعات طوال يحكي عن زوجته وطفله. كان صياداً خسر زورقه فاضطر الى ركوب البحار البعيدة. لقد مضت سنين كثيرة على هذه الحادثة ولكني مازلت اذكر ذلك الرجل انتظرت الزوجة (التي كانت تصغره بالسن كما اخبرني) عودة زوجها بلا جدوى. فلم يعد ليشعل لها النار في الصباح او يرعى الطفل حين تمرض الحقيقة ان هذه كانت الرحلة الاخيرة لاغلب هؤلاء المساكين (كما اثبتت الحوادث فيما بعد). فقد ابتلعتهم اعماق البحر والاسماك المفترسة. وليس من كرم الاخلاق ان يشتم المرء الموتى.

من الاعمال الحسنة الاخرى التي قاموا بها انهم اعادوا الي نقودي التي كانوا قد تقاسموها فيما بينهم، واظنهم اخذوا ثلث المبلغ. وقد فرحت ايما فرح باستعادتها املاً ان تفيدني فائدة كبيرة

حين نصل الى الارض التي نقصدها. كانت السفينة متجهة الى مستعمرة كارولينا. ولاتتصوروا اني ذاهب الى هناك كمجرد منفي. كانت التجارة كاسدة في تلك الاونة. ثم قامت بعد ذلك ثورة في المستعمرات انتهت طبعاً بقيام الولايات المتحدة. لكن في ايام صباي كان البيض يباعون عبيداً للعمل في مزارع المستعمرات. وكان هذا هو المصير الذي رسمه لي عمي الشرير.

كان صبي القبطان رانسم (وهو اول من اخبرني عن هذه الفظاعات) يأتي بين حين واخر من الحجرة الدائرية ـ حجرة القبطان ـ حيث ينام ويخدم، ليعالج ساقاً متورمة او ليهرب من قسوة المستر شوان. كان قلبي يتقطع الماً لرؤيته. لكن البحارة كانوا ينظرون باحترام عميق الى كبير الملاحين الذي يعتبرونه «افضل ملاح في سفن العبيد وليس بالرجل السيء حين يكون صاحياً». الحق اني وجدت اختلافاً غريباً بين الضابطين الكبيرين: فالمستر ري ـ آتش يتحول الى رجل عبوس قاس فظ حين يكون صاحياً والمستر شوان لايؤذي ذبابة الا اذا كان سكراناً. وعندما سألت عن القبطان قيل لي ان الخمرة لاتؤثر على ذلك الرجل الحديدي.

حاولت كل مافي وسعي. خلال الفترة القصيرة التي اتيحت لي، ان اجعل من المخلوق المسكين رانسم رجلاً، او بالاحرى شيئاً اقرب الى ولد، لكن عقله لم يكن عقل انسان. فهو لا يستطيع ان يتذكر من حياته قبل مجيئه الى سفية العبيد شيئاً سوى ان والده كان صانع ساعات جدارية وكان عندهم قفص فيه زرزور يصفر بلحن «بلاد الشمال». وماعدا هذا فقد محته سنوات الاذى والقسوة هذه من ذاكرته. وكان يحمل فكرة غامضة غريبة عن اليابسة تكونت لديه من حكايات البحارة: ان اليابسة هي المكان الذي يباع فيه الاولاد عبيداً وحيث يجلد الصغار العاملون في الحرف بالسياط ويقيدون بالسلاسل ويرمى بهم في سجون قذرة مظلمة. وكان يظن ان نصف

سكان المدينة فخاخ للايقاع بالبحارة وان بين كل ثلاثة بيوت واحد يجرّ اليه البحارة ويقتلون. صرت احكي له كيف انا نفسي اتلقى معاملة طيبة في تلك الارض الجافة التي يخشاها وكيف كان اهلي واصدقائي يعتنون بي وبتعليمي. وصار في الاونة الاخيرة اذا اوذي بكى بمرارة واقسم ان يهرب لكنه كان يسخر من هذه الفكرة حين ينتابه مرحه المعتوه المألوف (او اسوأ من هذا) حين يتناول كأساً من الكحول.

المستر ري آتش (سامحه الله!) هو الذي كان يعطي الولد خمراً، وكان يفعل هذا من باب الرأفة بالتأكيد. لم تكن الخمرة تهدم صحته فقط، بل كان منظراً يدعو الى اشد الرثاء ان ترى هذا المخلوق التعيس الذي لاصديق له يترنح ويرقص ويهذي بكلام لايفهمه. كان البعض يضحك والبعض يستبد به الغضب (ربما يتذكرون طفولتهم او اطفالهم) ويطلب منه الكف عن ذلك السخف والانتباه الى ماكان يفعل. اما انا فكنت اشعر بالخجل.. ومازال الولد المسكين يزورني في احلامي.

لابد لي من القول بأن السفينة كوفنانت كانت في تلك الايام تواجه رياحاً معاكسة وتتقاذفها الامواج العالية بحيث ان غطاء السقف ظل مغلقاً طول الوقت فيما كان سراج متأرجح وحيد معلقاً في السقف ينير العنبر. كان العمل دائباً على ظهر السفينة. فالاشرعة يجب ان تطوى قليلاً كل ساعة. ونال الارهاق من اعصاب البحارة فصاروا يتشاجرون طوال النهار. ولكم ان تتصوروا اية حياة لاتطاق عشتها في العنبر وسط الشجار المستمر وانا ممنوع علي الصعود الى السطح، وكم تمنيت ان تتغير تلك الحال.

وجاء التغيير، كما ستعلمون، إنما يجب ان احكي لكم اولاً عن محادثة بيني وبين المستر ري ـ آتش قوّت عزيمتي على مواجهة المتاعب. فقد تحدثت اليه وهو في درجة مناسبة من السكر (اذ هو

لايتقرب مني ابداً ولايكلمني قط حين يكون صاحباً) فرجوته ان يحفظ السر وقصصت عليه حكايتي كلها.

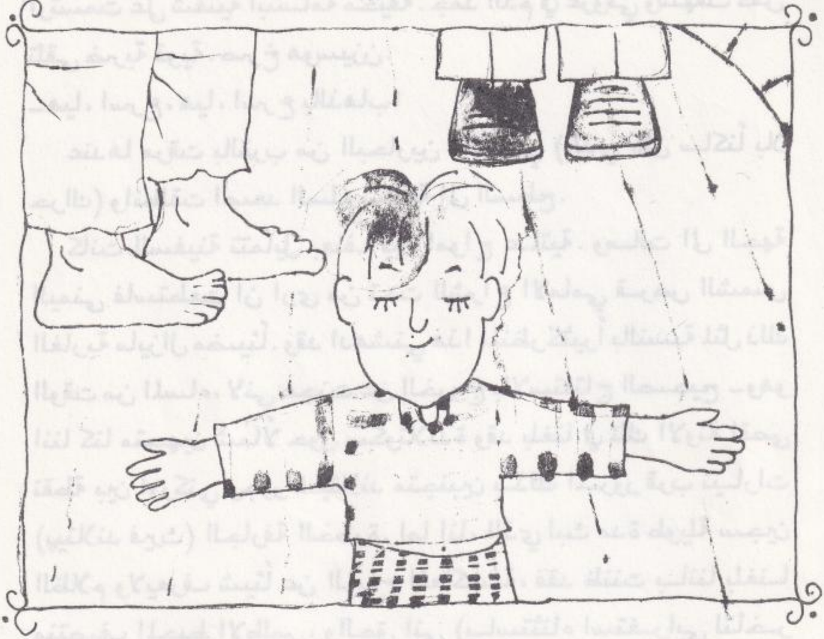
فقال انها تشبه الملاحم الشعبية وانه سيبذل قصارى جهده لمساعدتي واني لابد لي من ورقة وقلم لاكتب سطراً الى المستر كامبل واخر الى المستر رانكيللر وانني ان كنت صادقاً في ماذكرت فذلك بالتأكيد سيمكنه (بمساعدة القسيس والمحامي) من انقاذي واعادة حقوقي الي. ويقول:

- وحتى ذلك الحين، شد من عزيمتك. لست وحدك بهذه الحال. صدقني. كثيرون يجمعون التبغ في حقول المستعمرات ممن يجب ان يكونوا سادة مترفين. كثيرون وكثيرون! الحياة مفارقات في احسن الاحوال. انظر الي: انا ابن لورد وكنت ساغدو طبيباً وها انا هنا مستخدم عند هوسيزن!

رأيت من التمدن ان اسأله عن حكايته. فصفر بصوت عال وقال:

- ماعندي حكاية ابداً. كنت امزح معك ليس الا. وغادر العنبر.

الفصل الثامن
(الحجرة الدائرية)



في منتصف احدى الليالي جاء احد افراد نوبة الحراسة على السطح. التي يشرف عليها المستر ري - آتش، ليأخذ سترته وفي الحال دار بين البحارة همس حول الحجرة الداخلية: «شوان فعلها اخيراً». ماكانت هناك حاجة لذكر اسم فقد عرفنا جميعاً من المقصود. ولكن ماكدنا نستوعب المسألة وقبل ان تتاح فرصة للكلام فتح غطاء السقف ونزل الكابتن هوسيزن. دار بنظرات غاضبة على اسرة البحارة ثم اتجه الي وخاطبني. وياللعجب بلهجة طيبة قائلاً:

- نريدك، ياصاحبي، ان تخدم في الحجرة الدائرية. يجب ان تتبادل الاماكن انت ورانسم. هيا، اسرع.

وبينما هو يتكلم ظهر عند السلم بحاران يحملان رانسم. في تلك

اللحظة اهتزت السفينة بقوة وتـأجج السراج المعلق في سقف العنبـر فسقط ضوؤه على وجه الصبي مباشرة فاذا هو ابيض كـالشمع وقـد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة. جمد الدم في عروقي وشهقت كمن تلقى ضربة قوية. صرخ هوسيزن:

ـ هيا، اسرع، هيا، اسرع بالذهاب!

عندها مرقت بالقرب من البحارين والصبي (الذي كان ساكناً بلا حراك) وانطلقت اصعد السلم بسرعة الى السطح.

كانت السفينة تتمايل بعنف بين امواج عـاتية. ومـالت الى الجهة اليمنى فاستطعت ان ارى من تحت الشراع الامامي قـرص الشمس الغاربة مايزال مضيئاً. وقد ادهشني هذا المنظر كثيراً بالنسبة لمثل ذلك الوقت من المساء، لأني عجزت عن الخروج بالاستنتاج الصحيح ـ وهو اننا كنا متجهين شمالاً حول سكوتلاندة وقد بلغنا في تلك الاونة اقصى نقطة بين اوركني وجزر شيتلاند متجنبين بـذلك المـرور قرب تيـارات (بيتلاند فيرث) الجارفة الخطرة. اما انا، الذي لبث مدة طويلة سجين الظلام ولايعرف شيئاً عن الرياح المعاكسـة، فقد ظننت بـأننا بلغنـا منتصف المحيط الاطلسي، والحق اني (بـاستثناء استغـرابي لتأخـر غروب الشمس) لم اهتم بالمسألة، بل انطلقت اركض على سطح السفينة بين الامواج المتلاطمة ممسكاً بالحبال القريبة مني وكنت سأهوي في البحر لولم يمسك بي احد البحارة، هو نفس البحار الذي كان يعطف علي دائماً.

كانت الحجرة الدائرية، التي تقرر ان اخدم وانام فيها، تعلو حوالي ستة اقدام عن السطح وليست صغيرة بالقياس الى حجم السفينة. ثبت على ارضيتها طاولة ومصطبة (مقعد طويل) وسريران احدهما للقبطان والثاني لأي من الضابطـين في غير اوقـات الحراسـة. وكانت حـافلة بالخزانات والادراج من القاع الى السقف لحفظ لوازم الضباط وجانب من اطعمة السفينة ومخزوناتها. ثمة مخزون اخر في قعر السفينة يوصل

اليـه من بوابـة في السطح لكن الحجـرة كانت تضم افضـل اللحوم والمشروبات وكل براميل البارود وكل الاسلحة النارية فيما عدا، المدفعين الصغيرين من النحاس الاصفر المشدودين الى دولاب مسنن في مؤخرة الحجرة، اما السيوف فاغلبها مخزون في مكان اخر.

كانت الحجرة تضاء نهاراً من نافذتين بمغاليق على جانبيها وكوة في سقفها. ويوقد فيها مصباح بصورة دائمة بعد حلـول الظلام. وكـان المصباح مضاء حين دخلت. لم يكن ضوؤه باهراً، انما كافياً لأرى المستر شوان جالساً الى الطاولة وامامه زجاجة براندي وكوباً من الصفيح. كان رجلاً طويل القامة متين البنيان داكن البشرة وكان يتطلع الى امامه بنظرة ذاهلة بلهاء.

لم يعبأ بدخولي بل ولم يتململ من مكانه حين تبعني القبطان واتكأ على جانب السرير وراح ينظر الى ضابطه عابساً.

وقفت خائفاً خوفاً من القبطان، ولم يكن خوفاً بلا سبب. لكن هاجساً في نفسي قال لي ان لاحاجة بي الى الخوف منه في تلك الساعة فهمست في اذنه: «كيف حاله؟» الا ان القبطان هز رأسه كمن لايعرف ولايريد ان يفكر، وظلت تعابير وجهه صارمة.

وسرعان ماجـاء المستر ري ـ آتش فـرمى القبطان بنظـره سريعة معناها ان الولد مات كانت واضحة وضوح الكلمات ولزم الصمت مثلنا. وهكذا رحنا نحن الثلاثة نحدق بالمستر شوان بصمت بينمـا لبث هو جالساً يحدق بالطاولة ذاهلاً.

وفجأة مد يده ليتناول زجاجة الخمـر فاسرع المستـر ري ـ آتش يختطفها بحركة مباغتة لاعنيفة وصاح وهو يقسم الايمان بان ماحدث حتى الان اكثر من الكثير وان لعنة السماء ستحل على هذه السفينة. وبينما هو يتكلم قذف بالزجاجـة الى البحر من النـافذة (التي كـانت مغاليقها مفتوحة في تلك اللحظة).

هب المستر شوان واقفاً بسرعة البرق، عازماً ان يقتل ثانية، وان كان

يترنح من السكر، لولم يقف القبطان بينه وبين الضحية وصاح بصوت كالزئير:

ـ اجلس! ايها الخنزير السكير. اتعرف مافعلت؟

انت قتلت الصبي!

ويبدو ان المستر شوان فهم ذلك، فقد جلس ثانية واتكأ برأسه على راحة يده، قال:

ـ حسناً... جاءني بكوب وسخ!

تبادلنا انا والقبطان والمستر ري ـ آتش نظرة رعب لدى سماعنا هذه العبارة. عندئذ تقدم الكابتن هوسيزن من كبير ضابطيه فسحبه من كتفه وقاده الى السرير وامره بأن ينطرح وينام مثلما يتحدث المرء الى طفل. فبكي القاتل قليلاً، لكنه نزع حذاء العمل الطويل واذعن لأمر القبطان.

قال المستر ري ـ آتش بصوت مخيف:

ـ آه! كان الواجب ان تتدخل قبل وقت طويل. لقد فات الاوان الان.

فقال القبطان:

ـ مستر ري ـ آتش... قضية هذه الليلة يجب الا تصل الى دايسارت. الولد وقع من فوق سياج السفينة في البحر ياسيدي. هذه هي الحكاية وانا مستعد لدفع خمس باونات من جيبي لتوكيد صحتها! ومضى الى الطاولة واضاف قائلاً:

ـ ماالذي جعلك ترمي زجاجة الخمر الجيدة الى البحر؟

تصرف سخيف ذاك ياسيدي. هاك يا ديڤيد واجلب لي زجاجة اخرى. تجدها في الدرج الاسفل.

ورمى لي مفتاحاً واضاف مخاطباً ري ـ آتش.

ـ تصرفك قبيح.

وهكذا جلس الاثنان وراحا يحتسيان الخمر بانسجام. وفي هذه الاثناء نهض القاتل، الذي كان يئن ويبكي في سريره، على مرفقيه وراح ينظر اليهما واليّ.

تلك كانت اولى ليالي عملي الجديد. في النهار كان علي ان اخدم المائدة في وجبات الطعام التي كان القبطان يتناولها في مواعيد منتظمة مع الضابط الذي خارج نوبة الحراسة. وكان علي ان اركض طوال النهار حاملاً قليلاً من النبيذ لهذا او ذاك من سادتي الثلاثة. وفي الليل انام على بطانية ممدودة على الارضية الخشبية في قعر الحجرة الدائرية وامام تيار الهواء البارد الذي يتدفق من الابواب. كان فراشاً قاسياً وبارداً. كما انهم لم يتركوني انام براحة مرة واحدة. فكانوا يأتون دائماً لأخذ كأس من الخمر. وعندما يأتي وقت تحديد نوبة الحراسة التالية يجلس اثنان منهما، او الثلاثة احياناً، الى زجاجة خمر، اما كيف يحتفظون بصحتهم فلا ادري. بل لا ادري كيف احتفظت انا بصحتي!

ومع ذلك فقد كان العمل سهلاً من عدة وجوه. فما كان الامر يتطلب وضع شرشف على المائدة وغير ذلك من الخدمات وكان الطعام ثريداً من دقيق الذرة الناعمة او لحم البقر المملح المجفف، والحلوى مرتين في الاسبوع. ورغم اني كنت اخدمهم بطريقة بطيئة خرقاء (لأن ساقي لم تتعود بعد على تأرجح السفينة) واقع احياناً فينسكب ما احمله من طعام او شراب ارضاً، فقد صبر علي المستر ري ـ آتش والقبطان بصورة غير منتظرة ولا استطيع الا ان ارجع سكوتهما الى انهما يعانيان من تأنيب الضمير وانهما ماكانا ليعاملاني بطريقة طيبة لو لم يعاملا رانسم بلا رحمة.

اما بالنسبة لمستر شوان فقد خبله الشراب او جريمته او كلاهما. لا استطيع القول بأني رأيته متمالكاً وعيه في يوم من الايام. لم يتعود قط على وجودي هناك وكان ينظر الي شزراً (وأحياناً نظرات مرعوبة) ويجفل مني ويبتعد عن يدي حين امدها اليه بطبق الطعام. لقد شعرت منذ البداية بأنه لم يكن واعياً لما فعله. وجاء توكيد ظني في اليوم الثاني من خدمتي في الحجرة. كنا وحدنا وكان يحدق بي لفترة طويلة حين هب من مكانه فجأة، شاحب الوجه كالموتى واقترب مني بدرجة مخيفة، لكني

ماكنت اخاف منه. سألني:

ـ انت لم تكن هنا من قبل؟

قلت:

ـ لاياسيدي.

سألني ثانية:

ـ كان هنا ولد اخر؟

فلما اجبته بالايجاب قال:

ـ آه! هكذا فكرت.

وعاد يجلس دون كلام سوى طلب البراندي.

قد تستغربون اذا قلت لكم اني، رغم كل ما مررت به من رعب، مازلت أشعر بالرثاء له. كان متزوجاً، وزوجته تعيش في مدينة (ليث)، اما ان يكون عنده اطفال او لا فلم اعد اذكر الان. ارجو ان لايكون عنده اطفال.

لم تكن حياة قاسية تلك التي قضيتها في خدمة الحجرة الدائرية ولم تستمر طويلاً (كما ستعرفون فيما بعد) فصرت اكل مثلما يأكلون، حتى المخللات، التي كانت مصدر استمتاع كبير بالنسبة لهم، اعطوني حصة منها. ولو كنت اردت لكانوا اعطوني من الخمر مايجعلني سكران ليل نهار مثل المستر شوان. ونشأت لي زمالة، يمكن القول عنها انها زمالة طيبة. ذلك ان المستر ري ـ آتش الذي كان قد درس في الجامعة، كان يتحدث معي كصديق حين لايكون متقلب المـزاج ويحكي لي عن امور كثيرة غريبة، بعضها جديد ومفيد. حتى القبطان، الذي ظل يعاملني ببرود اغلب الوقت، كان يتخلى احياناً عن بـروده ويحكي لي قليلاً عن البلدان الجميلة التي زارها.

كان ظل رانسم المسكين يخيم علينا نحن الاربعة بالتأكيد وكـانت وطأته اشد علينا انا والمستر شوان. ثم كانت هناك مشكلتي الخاصة. فهـا انا اخـدم ثلاثـة اشخاص المفـروض ان يعلق احدهم في حبـل المشنقة. تلك كانت حالتي الراهنة. وحين انظر الى المستقبـل لااراني

سوى عبد يعمل مع الزنوج في مزارع التبغ. فالمستر ري ـ آتش قد لايسمح لي، من باب الحيطة والحذر، بأن احكي المزيد عن قصتي. والقبطان، الذي حاولت التقرب اليه، نهرني كما ينهر الكلب، رافضاً الاستماع الى كلمة واحدة مني. ومع مرور الايام زاد بأسي وحزني الى حد اني صرت اغرق نفسي بالعمل لأنشغل به عن التفكير.

الفصل التاسع

(الرجل ذو الحزام المملوء بالذهب)



مر اكثر من اسبوع والحظ السيء دفع السفينة كوفنانت الى هذه الرحلة يزداد سوء فكانت تمضي أيام لاتتحرك فيها الا اميالاً قليلة وتأتي ايام تدفعها فيها الرياح الى الوراء. اخيراً دفعتنا الريح بعيداً الى الجنوب وصارت تطوح بالسفينة صعوداً ونزولاً طيلة تسعة ايام، ونحن على مرمى البصر من رأس الغضب (كيب راث) والشاطىء الصخري الخطر على جانبيه. ترتب على هذا ان عقد الضباط مجلساً للتشاور في الامر واتخذوا بعض القرارات التي لم افهمها على الوجه الصحيح، بل رأيت نتيجتها فقط: «وهي اننا نظرنا الى بعض العواصف على انها ريح طيبة فكانت النتيجة ان دفعتنا الى الجنوب.

في عصر اليوم العاشر سكنت الرياح وهبط ضباب كثيف حتى صار الواحد لايرى الجانب الاخـر من السفينة. وطـوال العصر كنت كلما صعدت الى السطح أرى البحارة والضباط مطلين برؤوسهم من فوق السياج مرهفين السمع لصوت «انكسار الموج» كما يقولون. ورغم اني لم افهم معنى العبارة جيداً، فقد شعرت باقتراب الخطر واستولى علي القلق.

ربما كانت الساعة قـد قاربت العـاشرة ليلاً، وكنت اقـدم العشاء للقبطان والمستر ري ـ آتش، حين ارتطمت السفينة بشيء ففحدث دوي شديد. وسمعنا اصواتاً تصرخ وتنادي فهب سيداي واقفين في الحال.

قال المستر ري ـ آتش.

ـ لقد اصطدمت!

فقال القبطان:

ـ لا ياسيدي. هذا صوت قارب اصطدم بنا.

واسرعا الى الخارج.

كان القبطان مصيباً في قوله. فقد صـدمت السفينة قـارباً بسبب الضباب فتحطم وغرق بمن فيه الا واحداً. هذا الرجل (كما علمت فيما بعد) كان جالساً في مؤخرة القارب كمسافر، بينمـا جلس اخرون الى المجاذيف. في لحظة الاصطدام ارتفعت مؤخرة القارب في الهواء فقفز الرجل (الذي لم يكن مشغولاً بالتجذيف) وتعلق بالدقل المائل الذي في مقدمة السفينة رغم المعطف، الثقيل الذي كان يرتديه وقد دلت هـذه الحركة على ما يتمتع به الرجل من خفة حركة وقوة غير اعتيادية والا ماكان لينجو من موت محقق. ومع ذلك كان بارد الاعصاب هادئاً حين جاء به القبطان الى الحجرة الدائرية.

كان صغير الجسم الى حد ما. لكنه متين البنيان رشيقاً كالمعزى. طلق الوجه داكن اللون من لفح الشمس ترك الجدري ندوباً واخاديد عـلى وجهه. وكانت عيناه شهلاوين على نحو غير مألوف وفيهما بريق مجنون

ينشر سحراً ورهبة. وعندما خلع معطفه الثقيل سحب من حزامه مسدسين. بمقبضين من الفضة ووضعهما على الطاولة. ورأيته يحمل سيفاً طويلاً. كان يتصرف باناقة وخاطب القبطان بعبارات لطيفة مؤدبة قلت في نفسي ان هذا على وجه العموم، رجل يمكن ان ادعوه صديقي لاعدوي.

القبطان هو الاخرراح يتأمله، انما يتأمل ثيابه لاشخصه. والحق انه حين خلع معطفه كشف عن اناقة ثياب اكبر بكثير من ان تجدها في غرفة قبطان سفينة تجارية. كانت قبعته من الفراء ويلبس صداراً احمر وسروال ركوب اسود انيقاً وسترة زرقاء باشرطة وازرار فضية. ملابس ثمينة ولو ان اثار النوم بها والضباب اتلفت بعض اناقتها. يقول القبطان:

ـ انا منزعج ياسيدي، بشأن القارب.

فقال الغريب:

ـ هناك بعض الرجال الرائعين ابتلعهم البحر. كنت افضل رؤيتهم احياء على عشرة قوارب.

سأله هوسيزن:

ـ اصدقاؤك

فكان جوابه:

ـ لن تجد اصدقاء مثلهم في بلدك. كانوا مستعدين للموت في سبيلي مثل كلاب وفية.

قال القبطان، وهو مايزال يراقبه:

ـ حسناً ياسيدي الرجال في العالم اكثر مما تستوعب القوارب.

فصاح الرجل:

ـ هذا صحيح ايضاً. وانت تبدو لي سيداً شديد الذكاء

يقول القبطان:

ـ عشت في فرنسا ياسيدي.

وكان واضحاً انه كان يعني اكثر من معنى الكلمات المباشرة يقول الاخر:

ـ وكذا الحال بالنسبة لأناس كثيرين ياسيدي.

يقول القبطان

ـ بلاشك ياسيدي. وكذلك بالنسبة للسترات الانيقة.

يقول الغريب:

ـ اوهو! اهكذا تجري الرياح؟

واسرع يضع يديه على مسدسه. قال القبطان:

ـ لاتتسرع. لاترتكب حماقة قبل ان تجد حاجة اليها. انت لابس سترة جندي فرنسي وتتكلم بلسان سكوتلاندي بالتأكيد. هكذا يفعل العديد من الناس الشرفاء ففي ايامنا هذه، والى ابعد الحدود اذ جاز القول..

فقال السيد ذو السترة الانيقة:

ـ هكذا؟ أأنت من حزب الناس الشرفاء؟

(يعني: هل هو من اليعاقبة؟(*) ذلك لأن كل طرف من اطراف الحروب الاهلية والنزاعات السياسية يطلق على نفسه صفة الشرف). اجـاب الكابتن:

ـ عجباً ياسيدي، انا بروتستانتي صادق واحمد الله على ذلك.

(تلك كانت اول كلمة ايمان اسمعها منه، ثم علمت فيما بعد انه رجل مؤمن يذهب الى الكنيسة بانتظام حين يكون على اليابسة)

ويضيف:

ـ ولكن يؤسفني ان ارى رجلاً يرتاب بي بهذه الصورة.

فسأله اليعقوبي:

ـ أحقاً؟ حسناً ياسيدي سأكون صريحاً تماماً معك.

انا احد اولئك السادة الاشراف الذين لحقت بهم المتاعب بسبب احداث عامي ١٧٤٥ و ١٧٤٦ . (ولأكن اكثر صراحة) اذا وقعت بايدي السادة ذوي السترات الحمر كـانت نتيجتي وخيمة. والان يـاسيدي كنت في

طريقي الى فرنسا وكانت هناك سفينة فرنسية قادمة لتنقلني . لكنها عدلت عن ذلك بسبب الضباب ، واتمنى من كل قلبي ان تقوموا انتم بهذه الخدمة وكل ما اقوله الآن هو الآتي : إذا استطعتم إيصالي الى الشاطىء الذي أريد كافأتكم على تعبكم أحسن مكافأة .

يقول القبطان:

ـ في فرنسا؟. لاياسيدي. هذا مالاأستطيع أن أفعله. لكن الى المكان الذي جئت منه ـ قد نبحث هذا الموضوع.

ثم لاحظني، لسوء الحظ، واقفاً في زاويتي فأمرني بالذهاب الى المطبخ لأجلب عشاء للسيد. فلم أضع ثانية واحدة. وحين عدت حاملاً العشاء وجدت الغريب قد نزع من حول وسطه حزام نقود وأخرج منه جنيهاً ذهبياً أو اثنين وضعهما على الطاولة. راح القبطان ينقل نظره بين الجنيهين والحزام ووجه السيد الغريب. وكانت عيناه تلمعان طمعاً. وصاح:

ـ نصف المبلغ.. واكون الرجل الذي تبحث عنه.

فأعاد الغريب الجنيهين الى الحزام وتحزم به ثانية، وقال:

ـ قلت لك ياسيدي اني لااملك قرشاً واحداً من هذا المال هوملك زعيمي ـ وهنا لمس طرف قبعته تحية ـ لوسمحت لنفسي كمسافر سخيف بأن آخذ شيئاً منه فيجب ان اوصل بقية المال سالمة. وسأكون كلباً حقيراً حقاً لو اني اشتريت سلامتي بهذا المال. اعطيك ثلاثين جنيهاً اذا اوصلتني الى ساحل البحر او ستين اذا اوصلتني الى «بحيرقلين»هي لك اذا فعلت هذا. فان رفضت فاضرب رأسك بالحائط.

قال هوسيزن:

ـ هكذا. واذا سلمتك للجنود؟

فأجاب الاخر:

ـ صفقة غبية. دعني اقول لك ياسيدي ان زعيمي قد صودرت املاكه مثل كل انسان شريف في سكوتلانده املاكه بيد الرجل الذي يسمونه

(الملك جورج) وموظفوه هم الذين يجمعون له العائدات، اويحاولون ذلك. لكن الفلاخين المساكين، الذين يدافعون عن شرف سكوتلانده يفكرون بزعيمهم المقيم في المنفى. وهذا المال جزء من العائدات التي يطمح بها الملك جورج. والان ياسيدي تبدو لي رجلاً يفهم الامور. سلم هذا المال للحكومة.. فكم سيعطونك منه؟

فقال هوسيزن:

ـ الشيء القليل بالتأكيد.

ثم أضاف بلهجة جافة:

ـ لو عرفوا. لكن.. اعتقد بأني استطيع إمساك لساني لواردت ان احاول.

فصاح السيد الغريب:

ـ آه. لكني سأخدعك حين نصل! ان تخدعني أمكر بك. لو القوا القبض علي فسوف اخبرهم بكل ماأحمل من نقود.

فرد عليه القبطان:

ـ حسناً، ماباليد حيلة. ستون جنيهاً. موافق. هاك يدي عهداً.

فقال الاخر:

ـ وهذه يدي.

عندها غادر القبطان الحجرة (مسرعاً على ماأظن) وتركني وحدي مع الغريب.

في تلك الفترة (بعد احداث عام ١٧٤٥ بقليل) صار الكثير من الذوات المنفيين يعودون مغامرين بحياتهم لرؤية اصدقائهم اولجمع بعض المال. اما بالنسبة لزعماء الاراضي المرتفعة الذين صودرت املاكهم، فكان اتباعهم والفلاحون العاملون في اراضيهم يقترون على انفسهم ليرسلوا لهم بعض المال فيما يتحدى اقاربهم جنود الملك وسفن الاسطول بدخول البلاد وحمل تلك الاموال والعودة بها الى المنفى. كل هذا سمعت عنه حكايات بالطبع. وها انا ارى الان، بأم عيني، رجلاً

يغامر بحياته في كل الاحوال، لا مجرد انه من الثوار ومهربي الاموال الى المنفيين، بل ولأنه انضم الى خدمة الملك الفرنسي لويس. وكأن هذا كله لايكفي فجاء حاملاً حزاماً مليئاً بالجنيهات الذهبية. مهما يكن رأيي فان الرجل قد اثار اهتمامي. قلت وانا اضع صحن الطعام امامه:

ـ اذن فانت من اليعاقبة؟

فاجاب وهو يبدأ الاكل:

ـ اجل. وانت بوجهك الكئيب، لابد ان تكون من الموالين؟(*)

قلت حتى لاازعجه:

ـ بين بين.

لأني كنت في الحقيقة من الموالين المخلصين كما رباني القسيس، المستر كامبل على ذلك، قال:

ـ يعني لاشيء.

واضاف:

لكني اقول لك ياسيد «بين بين» إن هذا الخمر سيء لايسكر. وصعب على من يدفع ستين جنيهاً ان يدفع فلساً واحداً اضافياً.

قلت وانا اخرج الى سطح السفينة:

ـ سأذهب لآتي بالمفتاح.

كان الضباب مخيماً كالسابق، لكن الامواج هادئة تقريباً، وكانت السفينة تسير على غير هدى. فالريح (ان كانت هناك ريح حقاً) لاتكفي لدفع السفينة في الطريق الصحيح. وكان بعض البحارة مايزالون يحدقون في مياه البحر بحثاً عن الصخور. بينما راح القبطان ومساعداه يتشاورون وخطر في بالي (لاادري لماذا) انهم ينوون شراً. وجاءت الكلمة الاولى، التي سمعتها اثناء اقترابي منهم، مؤيدة لشكوكي. كان اول المتكلمين هو المستر ري ـ آتش الذي صاح كمن خطرت على باله فكرة فجأة:

ـ الا نستطيع استدراجه الى خارج الحجرة؟

فرد عليه هوسينز:

ـ بل الافضل ان يظل هناك. فالمكان لايسمح له باستعمال سيفه.

قال ري ـ آتش.:

ـ هذا صحيح. لكن من الصعب التغلب عليه.

فقال هوسينز:

ـ هراء! نستطيع مشاغلته بالكلام، كل من جانب. او، اذا لم تنجح هذه الطريقة ياسيدي، نهجم عليه من البابين ونتغلب عليه قبل ان يتمكن من سحب سيفه. تملكني الخوف والغضب لسماع هذا الكلام. فأي رجال غادرين جشعين دمويين هؤلاء الذين ابحر معهم على نفس السفينة! كان اول مافكرت به هو ان اهرب، لكن الفكرة الثانية كانت اشد جرأة. قلت وانا اقترب:

ـ كابتن. السيد يريد قطرة خمر. الزجاجة فرغت.

هلاّ اعطيتني المفتاح؟

فوجىء الثلاثة بوجودي والتفتوا الي. هتف ري ـ آتش:

ـ آه، هاهي فرصتنا للحصول على الاسلحة النارية.

ثم خاطبني قائلاً:

ـ إصغ الي ياديفيد. اتعرف اين المسدسات؟

فتدخل هوسينز:

ـ إي، اي. ديفيد يعرف. ديفيد ولد طيب. لاحظ ياديفيد.. يارجل ان صاحبك الجبلي المتوحش هذا خطر على السفينة، بالاضافة الى انه عدو صريح للملك جورج رعاه الله!

لم اسمع مثل عبارات المديح والمجاملة هذه قط منذ جئت الى هذه السفينة! لكني اجبت بالايجاب وكأني اؤيد كل ماقالوه. ومضى القبطان يقول:

ـ المشكلة ان كل اسلحتنا النارية، الكبيرة والصغيرة، موجودة في الحجرة الدائرية تحت سمع وبصر الرجل. وكذلك البارود. لو اني

ذهبت، او اي واحد من الضباط لاستخرجها فسوف نثير ارتيابه. لكن ولداً مثلك، ياديفيد، يمكن ان يأتي بكيس بارود ومسدس او مسدسين دون ان يلفت نظره. إذا استطعت القيام بهذا العمل بذكاء فسوف انفعك كصديق حين نصل الى كارولينا.

في هذه اللحظة همس المستر ري ـ آتش شيئاً في اذنه فقال:

ـ حسناً جداً ياسيدي.

ثم التفت الي قائلاً:

ـ اصغ الي ياديفيد. رجلك هذا يحمل حزاماً مملوء بالذهب. اعدك بأنك ستنال حصتك منه.

قلت له اني سأنفذ مايريد. رغم اني كنت اشعر بالاختناق وعلى هذا اعطاني مفتاح خزانة المشروبات. وعدت ببطء الى الحجرة الدائـرية. ماذا كان علي ان افعل؟ كانوا كلاباً ولصوصاً سرقوني من بلدي. وقتلوا رانسم المسكين. ويريدون مني ان انير لهم الطـريق لارتكاب جـريمة اخرى؟. لكن هناك بالمقابل خطر الموت الذي ينتظرني واضح امامي. إذ ماذا يستطيع صبي ورجل ان يفعلا بمواجهة طاقم سفينة باجمعه، حتى لو كانا بشجاعة الاسود؟

كنت اقلب الامر في ذهني وانا في حيرة شديدة. حين جئت الى الحجرة فرأيت اليعقوبي يتناول عشاءه على ضوء سراج. في تلك اللحظة عقدت عزمي على شيء. لم يكن عندي خيار. فقد وجدت نفسي بلا ارادة مني اتجه اليه واضع يدي على كتفه. قلت:

ـ اتريد ان تموت؟

فانتفض واقفاً وسألني بنظراته كأنه يسألني بالكلمات فصحت:

ـ آه! هؤلاء قتلة. السفينة مملوءة! قتلوا صبياً قبل قليل. والان جاء دورك

قال:

ـ وي، وي ! لكنهم لم يتمكنوا مني بعد.

ثم تطلع الي بنظرة استفسار وقال:

ـ هل تقف الى جانبي؟
فقلت:
ـ هذا ماسأفعله. انا لست لصاً ولم اصبح بعد قاتلاً.
سأقف الى جانبك.

قال:

عجباً والله! ماسمك؟

فأجبت:

ـ ديفيد بالفور
ثم فكرت بأن رجلاً يرتدي مثل هذه الثياب الجميلة لابد ان يميل الى خيار الناس، فأضفت للمرة الاولى في حياتي:
ـ آل شور.

لم يرتب بصحة كلامي، لأن ابن الجبال متعود على رؤية ابناء الذوات يعيشون في فقر شديد. لم يكن هو يملك اقطاعية تحمل اسمه، لذا اثارت كلماتي في نفسه غروراً طفولياً قوياً فقال وهو ينهض:
ـ اسمي ستيوارت. يدعونني [آلن بريك] يكفيني تماماً ان احمل اسم ملك، رغم اني احمل الاسم مجرداً من اسم قصر او اقطاعية.

بعدما انتهى من توجيه هذه الإهانة، وكأنها مسألة بالغة الاهمية، التفت الى فحص دفاعاتنا.

كانت الحجرة الدائرية متينة البنيان لتقاوم الامواج بها خمسة منافذ اكبرها كوّة في السقف وبابان تسمح بمرور انسان. يضاف الى ذلك ان البابين مصنوعان من خشب البلوط الثقيل ويمكن فتحهما او غلقهما بواسطة خطاطيف حديدية قوية. كان أحد البابين مغلقاً باحكام. وعندما توجهت لاغلاق الباب الاخر منعني آلن قائلاً:
ـ ديفيد... اسمح لي فأنا لااستطيع انْ اتذكر اسم اقطاعيتكم ولذا سأكون وقحاً واناديك باسمك المجرد ـ ديفيد.. ابقاء ذلك الباب مفتوحاً هو احسن جانب من دفاعاتي.

اقول انا:
ـ ومع ذلك فالافضل ان يغلق.
فيقول:
ـ غير صحيح. انتبه الي. انا لااملك سوى وجه واحد طالما ظل الباب مفتوحاً ووجهي اليه فان الجانب الاكبر من اعدائي سيكونون امامي. ماذا اريد احسن من هذا؟

ثم اعطاني قطلساً (سيف عريض النصل قصير) من المشجب، حيث علقت سيوف اخرى الى جانب الاسلحة النارية. بعدما انتقاه انتقاء جيداً قائلاً انه لم ير في حياته اسلحة اسوأ من هذه. اجلسني بعدها الى الطاولة واضعاً امامي جراب بارود وكيس رصاص وكل المسدسات الموجودة في الحجرة وطلب مني أن اعبئها، قائلاً:
ـ هذا العمل افضل لسيد من عائلة محترمة من غسل الصحون وحمل اكواب الخمر لبعض البحارة الكسالى. عندها وقف في الوسط باتجاه الباب شاهراً سيفه الطويل متفحصاً الحجرة التي عليه ان يدافع عن حياته فيها. قال وهو يهز رأسه:
ـ يجب ان لااتحرك من هذه النقطة. شيء مؤسف لايناسب عبقريتي. والان عليك ان تنصرف الى تعبئة المسدسات واصغ جيداً لما اقول.

قلت له اني سأصغي اليه بكل انتباه. ضاق نفسي وجف ريقي واسودت الدنيا في عيني. وكان التفكير بعدد الذين سيهجمون علينا يجعل قلبي يخفق بشدة وصارت فكرة البحر الذي كانت امواجه تتلاطم حول السفينة وجثتي الطافية يعثر عليها صباح اليوم التالي تسيطر على تفكيري. سألني:
ـ قبل كل شيء، كم عددهم ضدنا؟
احصيتهم. لكن فكري المشوش جعلني احصيهم مرة ثانية. قلت:
ـ خمسة عشر.
فصفر آلن وقال:

ـ عدد لايمكن معالجته. والان اتبعني. مهمتي انا أن اكون عند هـذا الباب حيث انتظر المعركة الرئيسية. هذه لاشأن لك بها. انتبه ولاتطلق النار في هذا الاتجـاه الا اذا رأيتهم يطرحـوني ارضاً، لأني افضـل مواجهة عشرة اعداء وجهاً لوجه على صديق مثلك يطلق النار من ورائي.

فصارحته باني لااحسن اطلاق النار. فصاح صيحة اعجاب كبير بصراحتي قائلاً:

ـ نعم الشجاعة في القول. كثير من السادة لايجرؤون على الاعتراف بهذا

قلت:

ـ ولكن هناك، ياسيدي، الباب الذي خلفك، قد يكسرونه ويدخلون.

فقال:

ـ أجل. هنا يأتي دورك. حال تعبيء المسدسات إصعد الى سريرك حيث تشرف على النافذة فإن مد احدهم يده الى الباب فأطلق عليه النار. لكن هذا ليس كل شيء سأجعل منك جندياً باديفيد. ماذا يمكن ان تحرس ايضاً؟

قلت:

ـ هناك كوة السقف. ولكن سأحتاج، يامستر ستيوارت الى زوجين من العيون لكي اراقب الاثنتين في آن واحد.

فقال آلن:

ـ هذا صحيح تماماً. ولكن الا تملك اذنين؟

صحت:

ـ بالتأكيد! ساسمع صوت تحطم الزجاج!

فقال آلن بشيء من العبوس:

ـ عندك بعض أوليات الاحساس.

(*) اليعاقبة: حزب يؤيد مطالبة عائلة [ستيوارت] السكوتلاندية بالعرش البريطاني بعد إقصاء جيمس الثاني عن العرش في الثورة الجليلة عام ١٦٨٨ م.

الفصل العاشر
(حصار الحجرة الدائرية)



انتهى وقت الهدنة، بعدما انتظرني اولئك الذين في الخارج حتى نفد صبرهم. ولم يكد آلن ينطق بحرف واحد حتى ظهر القبطان في الباب المفتوح، فصاح به آلن شاهراً سيفه بوجهه:

ـ قف!

فتوقف القبطان فعلاً، لكنه لم يجفل ولم يتراجع عن مكانه خطوة واحدة. يقول:

ـ سيف مسلول! ردّ غريب على الضيافة.

قال آلن:

ـ أتراني؟ انا سليل ملوك. احمل اسم ملك. شعاري شجرة بلوط. اترى سيفي؟ لقد قطع من رؤوس انصار الملك جورج اكثر مما في قدميك من

اصابع. ناد على جرذانك يـاسيدي واهجمـوا! وحال مـايبدأ النـزال سأجعل احشاءك تذوق طعم الفولاذ.

لم يرد القبطان على آلن بشيء، بل رماني بنظرة كريهة وقال:

ـ ديڤيد. سأذكر هذا.

فرنّ صدى صوته في اعماقي رنيناً حاداً مخيفاً. وذهب في اللحظة التالية. قال آلن:

ـ والان، استعد وافتح عينيك فالهجوم وشيك.

سحب آلن خنجراً بيده اليسرى، حتى اذا افلت احدهم من سيفه تلقاه بالخنجر. اما انا فقد تكورت في احد المضاجع ومعي حفنـة من المسدسات وفتحت النافذة لاراقب منها. لم استطع ان ارى من مكاني سوى جانب صغـير من سطح السفينـة، لكنه يفي بـالغرض. كـانت الامواج ساكنة والريـح هادئـة لاتحرك الاشرعـةوالصمت يخيم على السفينة بحيث استطيع ان اسمع حتى الغمغمات. بعد قليل سمعت قعقعة فولاذ على السطح فعلمت انهم يوزعون القطالس فيما بينهم. ووقع واحد منها ارضاً فأحدث ضجة. ثم ساد الصمت ثانية.

لاادري ان كنت خائفاً ام لا، إنما كان قلبي يخفق مثـل قلب طير، خفقاناً سريعـاً ضعيفاً واظلمت الـدنيا امـام عينيَّ فصرت افركهمـا باستمرار لتعود الظلمة ثانية. اما الامل فلم يعرف طريقـه الى قلبي. لاشيء سوى ظلام اليأس ونوع من النقمـة على العـالم الذي جعلني لااطيق التضحيـة بالنفس. اذكـر اني حاولت ان اصـلي، لكن القلق والاستعجال لم يتركا لي فرصة التفكير بالكلمات. كان كل همي ان تبدأ المعركة وينتهي الأمر كيفما ينتهي.

بدأ الهجوم فجأة. وقع اقدام وزئير، ثم صيحة من آلن وصوت طعنات وصرخة الم من احدهم. التفت فرأيت المستر شوان يتبارز مع آلن عند الباب فصحت:

ـ ذلك هو الذي قتل الصبي!

قال آلن :

ـ إنتبه الى نافذتك!

وقبل أن التفت الى سابق وضعي رأيته يغرس سيفه في احشاء الملاح.

كنت قد تأخرت بعض الشيء في العودة الى مراقبة النافذة. اذ ما أن ادرت رأسي الى النافذة حتى رأيت خمسة رجال حاملين دعامة خشبية ثقيلة ليكسروا بها الباب. لم اطلق النار من قبل سوى مرات قليلة من بندقية، اما المسدس فلا.. ولم اطلق على انسان قط. لكني في تلك اللحظة كنت امام خيار لامفر منه. فما ان رفعوا الدعامة ليضربوا بها الباب حتى صحت فيهم: «هاكم!» واطلقت عليهم النار.

لابد اني اصبت احدهم. فقد رأيته يصرخ متألماً ويتراجع خطوة الى الوراء، فيما وقف الباقون حائرين. وقبل ان يتاح لهم الوقت لإستعادة تماسكهم ارسلت رصاصة اخرى فوق رؤوسهم. وعند الرصاصة الثالثة (التي اصابت واحداً اخر) رموا الدعامة الخشبية وولوا هاربين.

تفحصت سطح السفينة ثانية. كان المكان غارقاً بدخان رصاصاتي مثلما كانت اذناي تطنان من صوت الاطلاقات. ابصرت آلن واقفاً كالسابق، لكن سيفه صار يقطر دماً الان وكان واقفاً باعتداد وقفة المنتصرين حتى ليبدو انه رجل لايقهر. امامه على الأرض ركع المستر شوان، يداه على ركبتيه والدم يتدفق من فمه. راح ينهار اكثر فاكثر وقد ابيض وجهه بصورة مخيفة. وفي تلك اللحظة امتدت بعض الايدي من ورائه وسحبته من قدميه الى خارج الحجرة. اعتقد انه مات اثناء سحبه الى الخارج. صاح آلن :

ـ اليك واحد من الاوغاد!

ثم التفت اليّ وسألني ان كنت قد فعلت الكثير فأخبرته بأني اصبت واحداً اعتقدت بأنه القبطان. فيقول:

ـ انا قضيت على اثنين. لا، لم يسفك الدم الكافي حتى الان. سيهجمون ثانية. خذ مكانك ياديفيد. هذا اول الغيث.

عدت الى موضعي واعدت تعبئة المسدسات الثلاثة التي اطلقتها ورحت اراقب بعيني واذني.

كان اعداؤنا يتجادلون على السطح غير بعيد عنا وكانت اصواتهم عالية بحيث اني سمعت كلمة او كلمتين رغم هدير الامواج. سمعت احدهم يقول: «شوان هو الذي افسد الخطة». فرد عليه اخر قائلاً: «صه، يارجل! لقد دفع الثمن».

عادت الاصوات بعد ذلك الى الغمغمة الخافتة السابقة، سوى ان شخصاً واحداً هو الذي كان يتكلم هذه المرة، كمن يرسم خطة وتكلم بعده واحد اخر وثانٍ بايجاز، كمن يتلقى اوامر. بهذا تأكد لي انهم سيهجمون ثانية فأخبرت آلن بالامر. فقال:

ـ هذا ماأدعو من اجله، مالم نذقهم طعم الهزيمة وننتهي من الامر فلن نستطيع النوم. ولكن انتبه، سيهجمون بضراوة هذه المرة.

كانت مسدساتي جاهزة ولم يكن امامي من عمل سوى الاصغاء والانتظار. لم اجد اثناء المعركة وقتاً للتفكير بالخوف. اما الان، والصمت مخيم فقد استولت هذه الفكرة على تفكيري. وشعرت بخوف شديد لفكرة السيوف القاطعة والفولاذ البارد الذي يخترق الاحشاء. وعندما بدأت اسمع وقع الخطوات المتسللة وصوت احتكاك الثياب بجدران الحجرة، وعرفت انهم يأخذون مواضعهم في الظلام وجدتني بلاارادة مني اصرخ بصوت عال.

كل هذا كان على حساب مركز آلن. وبدأت اعتقد بأن دوري في المعركة يوشك على الانتهاء حين سمعت صوت نزول احدهم على سطح الحجرة فوقي بهدوء.

تلا هذا صوت صفارة بحرية، كانت هي الاشارة. عندها هجم نفر منهم هجمة واحدة على الباب، حاملين القطالس، في نفس الوقت الذي تحطم فيه زجاج كوة السقف وتناثر الى الاف القطع وقفز منها رجل الى داخل الحجرة.

وقبل ان يتوازن ويقف على قدميه كنت قد دفعت بالمسدس الى ظهره، وكنت سأطلق النار واقتله لأقل حركة منه.

في تلك اللحظة خانتني شجاعتي ولم تقو اصابعي على ضغط الزناد ووددت ان اهرب.

كان قد رمى سيفه ارضاً حين هددته بالمسدس. الا انه التفت الي الان وامسك بي وشتمني شتيمة قبيحة. لاادري ان كانت شجاعتي عادت الي في تلك اللحظة ام هو الخوف الشديد.. النتيجة اني صرخت واطلقت النار الى امعائه فصدر عنه انين كريه وسقط ارضاً. كان واحد اخر قد تدلى من الكوة في اعقاب صاحبه فضربني بقدمه على رأسي فماكان مني الا ان التقط مسدساً اخر واطلق عليه النار بين ساقيه فانزلق عن الكوة وهوى جثة هامدة فوق جثة زميله. ماكانت الحالة تسمح بالانتظار ولا باضاعة رصاصة واحدة، فكنت احكم التسديد واطلق.

ربما كنت قد اطلت الوقوف اتأمل جثث الذين اصبتهم برصاصاتي اذ ان صيحة استغاثة من آلن اخرجتني من استغراقي.

لقد دافع عن الباب طويلاً، لكن احد البحارة استغل فرصة انشغال آلن مع آخرين فتسلل زاحفاً وطوقه بذراعيه. راح آلن يطعن الرجل بالخنجر الذي بيده اليسرى، الا ان البحار ظل متشبثاً به كالطفيليات. ودخل اخر ورفع سيفه بينما ازدحم الباب بوجوه الباقين. قلت في نفسي اننا انتهينا فرفعت قطلسي ونزلت بهم ضرباً على جوانبهم.

لكن نجدتي كانت متأخرة. المهم ان البحار المتمسك بآلن سقط ارضاً في النهاية فأتاح الفرصة له لأن يقفز الى الوراء حتى يؤمن المسافة الكافية. ثم هجم على الباقين وهو يزأر كالاسد فتناثروا امامه كالماء يتراكضون هاربين ويتعثر بعضهم ببعض في فوضى. وراح سيفه يبرق كالزئبق وهو يمعن بهم ضرباً وطعناً. كنت ماازال اظن اننا خسرنا وانتهينا حين نظرت الى الباب.. ياالله! لقد هربوا كلهم وهاهو آلن يسوقهم امامه مثل كلب رعاة يسوق قطيعاً من الخراف.

الا انه سرعان ماعاد الى مكانه في الحجرة، فهو رجل حذر بقدر ماهو شجاع. بينما ظل البحارة يتراكضون ويصرخون مذعورين. وكأنه مايزال يطاردهم، وسمعناهم يسرعون الى عنبر النوم فيدخلون ويغلقون الابواب والفتحات بالمزاليج.

كانت الحجرة الدائرية مثل مسلخ. فهناك ثلاث جثث بداخلها وواحد يلفظ انفاسه الاخيرة عند عتبة الباب. بينما كنا انا وآلن سالمين منتصرين. تقدم الن مني فاتحاً ذراعيه وقال:

ـ تعال لأعانقك.

وعانقني وقبلني من خدي وقال:

ـ احبك ياديفد مثل اخي.

ثم هتف في نشوة:

ـ آه يارجل، الست مقاتلاً رائعاً؟

بعدها تحول الى جثث الاعداء الاربعة فغرس سيفه في كل من الجثث وطوح بها واحدة بعد اخرى الى خارج الحجرة. وكان يدندن ويصفر ويغني كمن يحاول ان يتذكر لحناً، انما كان في الحقيقة يحاول تأليف لحن. وفجأة اشرق وجهه ولمعت عيناه فرحاً مثل طفل ابن خمس سنوات يعطي لعبة جديدة. وسرعان ماجلس الى الطاولة وسيفه بيده وبدأ اللحن الذي يريد تأليفه بالوضوح تدريجياً ثم اذا به ينطلق منشداً اغنية «غيليه» بصوت عال.(*)

لاترجمها لكم هنا شعراً (لأني لااملك فيه اية قابلية) بل بالانكليزية الملكية على الاقل. لطالما انشدها فيما بعد. حتى شاعت بين الناس. وهكذا سمعتها مراراً وشرحت لي كثيراً بهذا الشكل:

هذه انشودة سيف آلن
الحداد صنعه
والنار صقلته
ويسطع الان بيد آلن بريك

×××

عيونهم كثيرة تلمع
سريعة الحركة
والايدي التي يرفعونها كثيرة
والسيف وحده

×××

تغزو الغزلان سفح التل
هي كثيرة. التل واحد
وتختفي الغزلان الغازية
ويبقى التل.

×××

تعالوا الي من جبال العوسج
تعالوا من جزر البحر
ايتها النسور ذات النظر الثاقب
هنا اللحم الذي تنشدين

•

هذه الانشودة التي الفها (كلمات ولحناً) في ساعة انتصارنا هي شيء اقل من ان تكون هدية لي، انا الذي وقف الى جانبه في المعركة. فها هو المستر شوان وخمسة اخرون قد ماتوا او الحق بهم العجز التام. اثنان اجهزت انا عليهما، الاثنان اللذان نزلا من كوة السقف. وجرح اربعة اخرون منهم واحد (قد يكون اقلهم اهمية) جرح على يدي. وهكذا اكون اوفيت نصيبي من القتل والجرح واستحققت مكاناً من اشعار آلن. لكن الشعراء (كما اخبرني احد الناس الحكماء) يفكرون اولاً بالوزن واللغة الشعرية الجيدة. اما في النثر فقد انصفني آلن دائماً وزاد.

لم اكن ساعتها اشعر بان اذى ما لحقني لا لأني كنت اجهل اللهجة الغيلية فقط، بل لأن فترة الانتظار المتعبة للاعصاب والمعركتين ومارافقهما من توتر وارهاق واكثر من هذا الرعب الذي استولى علي في بعض مراحل القتال.. كل هذا اذهلني.. لذا ما ان انتهى القتال حتى

شعـرت بسرور عظيم ومضيت مترنحـاً الى احد المقـاعد. ثم شعـرت بانقباض شديد وضاق نفسي وخيم على روحي منظر الرجلـين اللذين قتلتهما، مثل الكابوس. ووجدتني فجأة وقبل ان يخطر ذلك على بالي. انخرط في بكاء عنيف مثل طفل.

ربت آلن على كتفي قائلاً إني ولد شجاع ولا أحتاج اكثر من بضع ساعات من النوم، قائلاً:

ـ سأقوم أنا بنوبة الحراسة الأولى. لقد أحسنت يا ديفيد في كل الاحوال، ولن أضحي بك من أجل آين كلها. كلا، حتى ولا بريد البين نفسها واعد لي فراشاً عـلى الارض واخذ نـوبة الحـراسة الاولى: المسـدس بيده والسيف على ركبتيه ـ طيلة ثلاث ساعات حسب مراقبة القبطان لنا عن بعد ـ ثم ايقظني فأخذت نوبتي طيلة ثلاث ساعات طلع النهار قبل ان تنتهي.

كان صباحاً هادئاً. وكانت امواج البحر الهادئة تميل بالسفينة يميناً وشمالاً فتسيل الدماء التي على ارضية الحجرة حسب ميلان السفينة. وراح المطر الغزيـر ينهال عـلى السطح.. لم يحـدث شيء خلال نـوبة حراستي، فقد دلت حركة السفينة التلقائية ان لااحد هناك يدير الدفة. والحق ان كثيراً منهم كان بين قتيل وجريح فيما كان الاخرون غاضبين متمردين (كما علمت فيما بعد) الى الحد الذي جعل المستر ري ـ آتش والقبطان يتناوبان على ادارة الدفة حتى لاتجنح السفينة الى اليابسة. من حسن الحظ ان الليلة كانت هادئة، فلا رياح شديدة ولاامواج عاتية. وما ان هدأت الريح حتى هطلت الامطـار. وقدرت من صخب اسراب النوارس التي راحت تحلق حول السفينة ان الامواج لابد جرفتنا الى موضع قريب من شاطىء احدى (جزر الهبـريديـز). غير اني، حـين اخـرجت رأسي من فتحة البـاب اخيراً ونظـرت الى الافق رأيت جبال (سكاي) الصخرية الى اليمين والى الخلف قليلاً (جزيرة رَم) الغربية.

(*) اللغة الغيلية (Gaelic) فرع من اللغة الكلتية التي يتكلمها ابناء سكوتلانده وايرلنده ـ وتنتمي الى عائلة اللغات الجرمانية.

الفصل الحادي عشر
(خضوع القبطان)



جلسنا أنا وآلن نتناول الفطور في حوالي الساعة السادسة . كانت أرضية الحجرة مغطاة بشظايا الزجاج وبرك الدماء الفظيعة التي سدت شهيتي . كنا ، من جميع الوجوه ، في وضع اكثر من مقبول ، بل مفرح . فقد طردنا الضباط من مقصورتهم وبات تحت تصرفنا كل ما في السفينة من مشروبات ـ الكحولية منها والنبيذ ـ وكل الطيبات من الأطعمة كالمخللات والانواع الجيدة من البسكيت . هذا وحده كان كافياً لتقوية معنوياتنا لكن أهم من هذا وذاك أن أكبر سكيرين أثنين انتجتهما سكوتلانده (بعد موت المستر شوان) حكم عليهما الآن أن يناما على السطح في مقدمة السفينة ويشربا

مايكرهانه الى أقصى حد ـ الماء البارد . قال آلن ؛
ـ ثق أننا سنسمع المزيد عنهما قريباً . يمكنك أن أن تحول بين الرجل والقتال .. أما أن تحول بينه وبين زجاجة الخمر فتلك هي الصعوبة !

توطدت العلاقة بيننا . فقد كشف آلن عن شخصية محبوبة حقاً . وتناول من على المنضدة سكيناً ليقطع بها أحد أزرار سترته الفضية . يقول :
ـ ورثتها عن أبي (دنكان ستيوارت) وأعطيك واحداً منها كتذكار لما عملناه في الليلة الماضية . حيثما ذهبت وعرضت هذا الزر التف حولك اصدقاء آلن بريك .

كان يتكلم كأنه شارلمان على رأس جيوشه . الحقيقة إني كنت على إعجابي بشجاعته أخاف من خطورة الابتسام سخرية من غروره . وأقول خطورة ، إذ لولا بعد نظري ، لكنت دخلت سعه في معركة لاحد لخطورتها علي .

حال ما انتهينا من الفطور راح ينقب في ادراج القبطان حتى عثر على فرشاة لتنظيف الثياب فنزع سترته وبدأ يزيل من على بذلته البقع والأوساخ بعناية وتأنٍ كبيرين لاتجدهما الا عن النساء . لاشك أنه لايملك غيرها يضاف الى ذلك أنها (كما يقول) تعود لملك ولذا يجب الاعتناء بها بمستوى ملكي .

وحين رأيت كم بذل من عناية في رفع نتف الخيوط المعلقة بموضع الزر الذي قدمه هدية لي أدركت كم هي ثمينة تلك الهدية في نظره .

كان مستغرقاً في العمل حين حيانا المستر ري ـ آتش من سطح السفينة طالباً التفاوض . فصعدت الى كوة السقف حاملاً مسدساً وجلست على الحافة وأنا خائف في داخلي من شظايا الزجاج العالقة . رددت له التحية وطلبت منه أن يتكلم . فاقترب من جدار الحجرة ووقف على لفة حبال لكي يكون رأسه بمستوى سطح الحجرة

فتبادلنا النظر لحظة بصمت . أعتقد أن المستر ري ـ آتش لم يشارك مشاركة كبيرة في المعركة ولذا خرج منها بجرح بسيط على وجنته . لكنه كان حزيناً مرهقاً بعد ليلة قضاها بطولها بين الحراسة ومعالجة الجرحى . قال أخيراً وهو يهز رأسه :

ـ هذا عمل سيىء .

قلت :

ـ لم يكن باختيارنا .

فيقول : القبطان يود التحدث مع صديقك . يمكنهما التحدث من النافذة .

فصحت :

ـ مايدرينا أي غدر يضمر ؟

فرد المستر ري ـ آتش :

ـ لاغدر البتة ياديفيد . وحتى لو أضمر غدراً فلا أكتمك بأننا لا نستطيع تعبئة الرجال معنا .

قلت :

أهكذا ؟

فيقول :

ـ بل أكثر من هذا . لامجرد الرجال . أنا أيضاً . أنا خائف ياديفي .

وابتسم لي وتابع كلامه :

ـ لا . كل مانريده هو أن يكفينا شره .

بناء على هذا تشاورت مع آلن في الأمر فوافق على التفاوض وتم التوصل الى تعهد متبادل . لكن هذا لم يكن الذي يسعى اليه المستر ري ـ آتش . فقد راح يتوسل الي أن أعطيه بضع قطرات من الخمر مذكراً إياي بمعاملته الطيبة السابقة لي ، حتى وجدتني في نهاية الأمر أعطيه كوباً من البراندي فيه مايقرب من ربع لتر ، فشرب قسماً منه وحمل الباقي الى رئيسه (كما أفترض) .

بعد قليل جاء القبطان الى احدى النوافذ (حسب الاتفاق) فوقف تحت المطر بذراعه المصابة معلقة الى عنقه ، عابس الوجه شاحب اللون بادي الهرم حتى أن قلبي ألمني لاطلاقي النار عليه . شهر آلن مسدساً في وجهه حالاً فقال القبطان :

- أبعد هذا الشيء ! ألم أعطيك كلمتي ياسيدي ؟ أم أنك تريد إهانتي ؟

فيقول آلن :

- كابتن ، أنا أشك بوعودك . أمس ناورت وداورت وساومت وتعاقدت معي واعطيتني يدك توثيقاً للاتفاق وتدري جيداً ماذا كانت نتيجة تعهدك . اللعنة على وعودك !

قال القبطان :

- حسناً حسناً ياسيدي . اللعنات لاتعود عليك بفائدة (الحق إن القبطان لم يكن من النوع الذي يسب ويلعن) ومضى يقول بمرارة !

- بل عندنا أمور أخرى نتحدث عنها . أنت آذيت سفينتي .

فما عاد لدي من البحارة مايكفي . وضابطي الأول (الذي لاغنى لي عنه) مزقت أحشاءه بسيفك ومات معقود اللسان . لم يبق ياسيدي سواي لاعادة السفينة الى ميناء كلاسكو . وهناك ستجد (بعد إذنك) من يعرفون كيف يتفاهمون معك أحسن مني .

قال آلن :

- نعم ؟ والله سأكلمهم بنفسي ! إلا إذا خلت المدينة ممن يتكلم الانكليزية . عندي حكاية جميلة أرويها لهم خمسة عشر بحار شرير ضد رجل وغلام !

أواه ، يارجل ، عار عليكم !

فاحمر وجه هوسيزن . تابع آلن كلامه :

- لا . هذا لاينفع . عليك أن توصلني الى الشاطىء كما اتفقنا .

فقال هوسيزن :

ـ أجل ، لكن ضابطي الأول مات أنت تعرف كيف مات لا أحد منا يعرف هذا الساحل ، وهو ساحل شديد الخطورة على السفن .

فيقول آلن :

ـ أترك لك الخيار . أوصلني الى اليابسة في (آپن) أو (آردغور) أو (مورڤن) أو (آريسيغ) أو (ميورر) أو باختصار حيثما يعجبك في حدود ثلاثين ميلاً من بلدي ، باستثناء منطقة آل كامبل . هدف سهل ، أن أخطأته فأنت عديم الجدوى في الملاحة مثلما وجدتك في القتال . عجباً ! أبناء بلدي المساكين يتنقلون بقوارب صيدهم الصغيرة من جزيرة الى أخرى في كل فصول السنة .. إي .. وفي ظلمة الليل .

فقال القبطان :

ـ زورق الصيد غير السفينة ياسيدي . لايحتاج الى خرائط ملاحة .

فيقول آلن :

ـ حسناً اذن ، الى كلاسكو اذا كان هذا يرضيك !

سيجعلنا نسخر منك على الأقل .

فقال القبطان :

ـ بالي لا ينصرف الى مسألة السخرية . إنما هذا سيكلف مالاً ياسيدي .

فيقول آلن :

ـ طيب . أنا لست رجلاً متقلباً ياسيدي . ثلاثون جنيهاً إذا أنزلتني من جهة البحر وستون اذا أوصلتني الى (بحيرة لين)

قال هوسيزن :

ـ لكن انظر أين نحن ياسيدي . نحن على بعد بضع ساعات من (آرناموړشان) ، اعطني ستين جنيهاً أوصلك الى هناك .

فصاح آلن :

ـ وأعرض نفسي لخطر ذوي السترات الحمر(*) إكراماً لك ؟

لاياسيدي . إذا أردت الجنيهات الستين فأعمل ماأريد وأوصلني الى بلدي .

قال القبطان .

ـ يعني المغامرة بالسفينة ياسيدي وبحياتكم .

فيقول آلن :

ـ لاتضيع هذه الفرصة

فسأله القبطان بعدما أطرق مفكراً بعض الوقت :

ـ أيمكنك قيادة السفينة ؟

فقال آلن :

ـ هذا أمر مشكوك به . أنا رجل مقاتل (كما رأيت بنفسك) أكثر مني ملاح . لكني كثيراً ما تنقلت على هذا الشاطىء حتى صرت أعرف بعض خفاياه .

هز القبطان رأسه وهو مايزال مشغول البال . قال :

ـ لولا خسارتي الكبيرة في هذه الرحلة المنحوسة لفضلت أن أراك مشنوقاً بحبل الصارية قبل أن أضحي بسفينتي ، ياسيدي . لكن ليكن الأمر كما تشاء . حال ما أحصل على نسمة ريح (الجو ينبىء بهذا إذا لم أخطىء) ننطلق . لكن بقي موضوع آخر . قد نلاقي في طريقنا إحدى سفن الملك ، وقد يطالبوننا ببيان هويتنا فلا تلمني عندئذ : سفن الاسطول كثيرة في هذا الجزء من الساحل ، وأنت تعرف عمن يبحثون ، والآن ياسيدي ، اذا حصل شيء من هذا القبيل فحبذا لو تترك لي النقود .

فيقول له آلن :

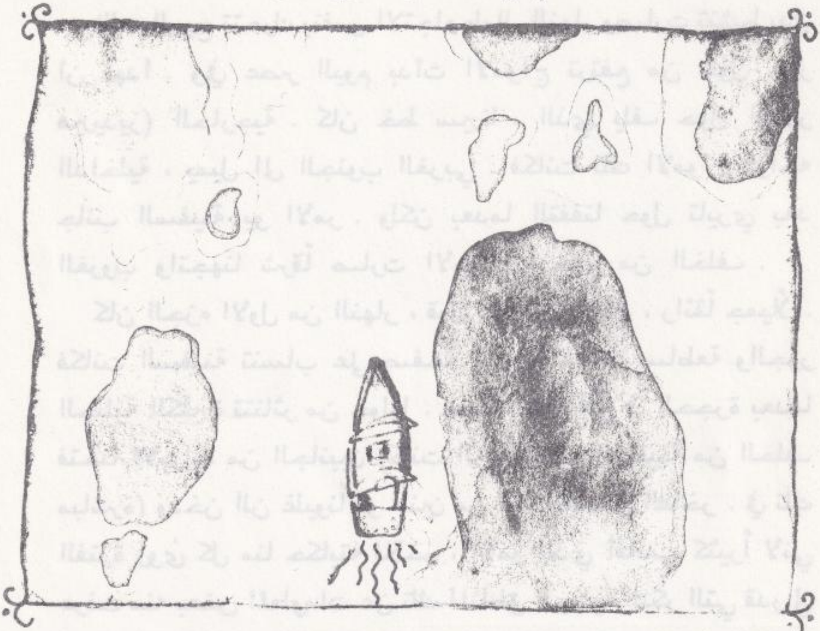
ـ كابتن ..إذا رأيت راية مثلثة(*) فما عليك الا أن تهرب منها . والآن ، سمعت أنك تفتقر الى البراندي . دعني أعقد معك صفقة : زجاجة من البراندي مقابل دلوين من الماء .

كانت تلك آخر فقرة من فقرات المعاهدة ، وقد بادر الطرفان الى

تنفيذها بالحرف الواحد . وبذلك استطعنا أنا وآلن أخيراً أن نغسل أرضية الحجرة الدائرية ونتخلص من ذكرى الذين ذبحناهم ، وأن نتيح للقبطان والمستر ري - آتش أن يسعدا بطريقتهما الخاصة التي تدعى : الخمرة !

(*) الستر الحمر - كناية عن ستر الجنود الإنكليز في تلك الفترة .

الفصل الثاني عشر
(أخبار الثعلب الأحمر)



قبل أن ننتهي من تنظيف الحجرة الدائرية هب نسيم من جهة الشمال الشرقي ، دفع بالغيوم بعيداً لتصفو السماء وتشرق الشمس .

هنا لابد أن أوضح بعض الأمور . ويستحسن أن ينظر القارىء الى الخارطة . يوم هبط الضباب وصدمت السفينة زورق آلن كنا نمر من خلال بوغاز (لتل منتش) .وفي فجر اليوم التالي للمعركة توقفت السفينة لانعدام الريح الى الشرق من (جزيرة كانا) أو بينها وبين (جزيرة إيرسكا) من سلسلة جزر (لونغ آيلاند) وكان خط السير المستقيم يمر من مضايق (ساوند أوف مول) . لكن القبطان لم يملك خرائط ملاحية وكان يخشى أن يتورط بسفينته بين هذه الجزر

المتشابكة . ولما كانت الريح مواتية فقد فضل أن يسير الى الغرب من (تايري) ليصل الى الشاطىء الجنوبي لـ (جزيرة مول) الكبرى .

ظلت الريح تتحرك بنفس الاتجاه طوال النهار وصارت تنشط بدل أن تهدأ . وفي عصر اليوم بدأت الامواج ترتفع من حول جزر هيريديز) الخارجية . كان خط سيرنا . الذي يلف حول الجزر الداخلية ، يميل الى الجنوب الغربي . فكانت تلك الامواج تواجه جانب السفينة يو الأمر . ولكن بعدما التففنا حول تايري بعد الغروب واتجهنا شرقاً صارت الأمواج تزحف من الخلف .

كان الجزء الأول من النهار ، قبل هياج الأمواج ، رائقاً جميلاً . فكانت السفينة تنساب على صفحة الماء والشمس ساطعة والجزر الجبلية الكثيرة تتناثر من حولنا . جلسنا أنا وآلن في الحجرة بعدما فتحنا الأبواب من الجانبين (كانت الريح تدفع السفينة من الخلف مباشرة) ودخن آلن غليوناً أو اثنين من تبغ القبطان الفاخر . في تلك الفترة روىٰ كل منا حكايته للآخر ، الأمر الذي أفادني كثيراً لأني عرفت منه بعض المعلومات عن تلك المناطق الجبلية البكر التي قدر لي أن أهبط فيها بعد هذا بأيام . في تلك الأيام التي أحقبت الثورة الكبرىٰ(*) كان على المرء أن يعرف ماذا يفعل حين يضطر للجوء الى الأحراش الجبلية .

كنت أنا البادىء . فرويت له كل مالحق بي من سوء حظ وأذىٰ . فأصغى الي ەصغاء جميلاً . لكن حين مررت في حديثي على ذكر صديقي الطيب ، القسيس كامبل ، هب آلن واقفاً وصاح بغضب شديد إنه يكره على من يحمل هذا الاسم . فقلت :

ـ لماذا ؟ إنه رجل جدير بأن تفخر بمدّيد الصداقة اليه فيقول :

ـ لاشيء أفكر بتقديمه الى واحد من آل كامبل سوى الرصاصة . بودي أن أصطاد كل من يحمل هذا الاسم كما تصطاد إناث الأوز البري . حتى لوكنت على فراش الموت لزحف على ركبتي الى النافذة

لأطلق النار على أحدهم .

فصرخت .

ـ لماذا يا آلن ؟ ماالذي يثير نقمتك على آل كامبل ؟

فيجيب :

ـ حسنا . أنت تعرف جيداً أني من آل ستيوارت أوف آپن وقد طارد آل كامبل كل من يحمل هذا الاسم وشردوه نعم ... واستولوا على أراضينا بالغدر والخيانة .

وصاح بصوت كالرعد :

ـ لابحد السيف ـ فلم أعبا بهذا القول لأني أدري أنه كلام المغلوب على أمره .

واستمر في كلامه .

ـ بل وأكثر من هذا .. وكلها على نفس المنوال : أقوال ملفقة . وثائق مزورة . أساليب شبيهة بحيل الباعة المتجولين ، وتغطية هذا كله بغطاء قانوني بما يملأ قلب الانسان غيظاً .

قلت :

ـ أنت يامبذر أزرار سترتك . لا أظنك رجلاً يحسن الحكم على الأعمال التجارية .فيبتسم ثانية ويقول :

آه ! ورثت تبذيري من نفس الرجل الذي أعطاني الأزرار ، من والدي المسكين (دنكان ستيوارت) رحمه الله ! كان أجل أقرانه وأفضل مبارز في سكوتلانده ياديڤيد ، يعني الأفضل في العالم كله . كان في كتيبة (الحرس الأسود)(*) في بداية تشكيلها . وكان ، شأن كل أولاد الذوات ، لديه تابع يمشي وراءه حاملاً له البندقية والعتاد أثناء الزحف . رغب الملك ، كما يبدو ، رؤية براعة أبناء المرتفعات في المبارزة فاختير أبي وثلاثة آخرون وأرسلوا الى مدينة لندن ليعوضوا أمامه فنون المبارزة . فجيىء بهم الى القصر حيث قدموا عروضاً رائعة بالسيف أمام الملك جورج والملكة كارلين والجزار كمبرلاند

وكثيرين آخرين لا اذكرهم . بعد أتنهائهم من تقديم عروضهم تلطف الملك معهم بالحديث ووضع في يد كل واحد منهم ثلاثة جنيهات ذهبية . وحين غادروا القصر كان عليهم أن يمروا على بيت أحد الحمالين . وحصل أن والدي ، الذي كان أول من وصل الى الباب ، رأى يعطي ذلك البواب المسكين فكرة عن كرم أبنا المرتفعات فوضع في يد البواب المذهول جنيهات الملك الثلاثة . وحذا الثلاثة الآخرون حذوه . ومن ثم خرجوا الى الشارع لايملكون قرشاً واحداً . يقول البعض إن هذا أوذاك بدأ باعطاء الحمال . لكن الصحيح هو أن البادىء كان دنكان ستيوارت ، وأنا مستعد لاثبات ذلك بالسيف أو المسدس . ذاك هو والدي ، رحمه الله !

فقلت :

ـ لا أظنه رجلاً يترك ثروة .

فقال آلن :

ـ هذا صحيح . ترك لي سروالي وبعض الاشياء . وهذا ماجعلني أتطوع للخدملا في الجيش الانكليزي . تلك كانت لطخة سوداء في سمعتي بأحسن الأحوال وكنت سأظل أعاني منها لو أني بقيت بين ذوي الستر الحمر .

فصحت :

ـ ماذا ! كنت في الجيش الانكليزي ؟

فقال آلن :

ـ هذا ماحصل . لكني فررت منه الى الجهة الصحيحة في معركة بريستنپانز ـ وفي هذا بعض العزاء .

لم أكن أشاركه في وجهة النظر هذه : ففأنا أعتبر الفرار من الجيش أثناء القتال عملاً مخلاً بالشرف لايقبل العفو . لكني رغم صغر سني كنت أعقل من أن أفصح عن أفكاري . لذا قلت .

ـ رحماك ، رحماك يارب ... العقوبة إعدام .

قال :

أجل . إذا أمسكوني ، فالذي ينتظرني بضع كلمات من الكاهن وحبل مشنقة . لكني أحمل في جيبي تفويضاً من ملك فرنسا عسى أن يوفر لي بعض الحماية .

قلت :

ـ أشك في ذلك .

فقال آلن بلهجة جافة :

ـ أنا نفسي أشك .

فصحت :

ـ ياللسماء يارجل ! أنت المحكوم بالاعدام بتهمة التمرد والهرب من الجيش ، وخدمة ملك فرنسا ـ ماالذي يغريك بالعودة الى هذا البلد ؟ لولا العناية الإلهية ..

فيقول آلن :

ـ هراء ! أنا أعود الى هنا سنوياً منذ عام ٤٦ !

فصحت

ـ ماالذي يأتي بك يارجل ؟

أجاب :

ـ حسناً ، أقول لك . أنا أحنُّ الى أصدقائي وبلدي . فرنسا مكان جميل بلاشك ، لكني أحن الى الأحراش والغزلان . ثم هناك بعض الاشغال أقوم بها . أنتقي بعض الفتيان لخدمة ملك فرنسا ، أعني لدخول الجيش . هذا يعود علي ببعض الدراهم . إنما جوهر عملي هو خدمة زعيمي (آردزهيل) .

قلت :

ـ ظننت انكم تطلقون على زعيكم اسم (آبن) .

قال :

ـ أجل . أنما آردزهيل هو رئيس عشيرتنا .

لم أفهم مايعنيه . تابع آلن كلامه :

- لاحظ ياديڤيد ، أن الرجل الذي عاش حياته شخصية عظيمة ويحمل دماء الملوك

وإسمهم ، كتب عليه التشرد والعيش في مدينة فرنسية مثل أي شخص عادي فقير . ذلك الرجل ، الذي كانت أربعمائة سيف تشهر بإشارة من اصبعه ، صار يشتري الزبد من السوق ويحمله الى بيته على ورقة كرنب (أو لهانة) .

هذا ليس مبعث ألم لنا فقط ، بل عار علينا نحن أبناء عائلته وعشيرته . وعلاوة على هذا هناك الصغار ، أطفال مناط رجاء (أو موضع أمل) آين ، الذين يجب أن يتلقوا التعليم ويتدربوا على حمل السيف في تلك البلاد البعيدة . الآن صار فلاحو آين يدفعون إيجار الأراضي الى الملك جورج وفي قلوبهم غصة لأنهم مخلصون لزعيمهم . ولذا تراهم بدافع الحب وبشيىء من الضغط وربما بعض التهديد يحاولون دفع إيجار آخر الى آردزهيل . طيب ياديڤيد . أنا الرجل المكلف بايصال هذه النقود .

ودق حزامه فسمعت رنين الجنيهات الذهبية . صحت :

- يدفعون إيجارين ؟

فيجيب

- أجل ، ياديڤيد ، إيجارين .

فكررت السؤال :

- ماذا ! إيجارين ؟

فقال :

- إي ياديڤيد . قلت لقبطانك كلاماً مختلفاً ، إنما هذه هي الحقيقة . الذي يدهشني أننا لانحتاج الى الضغط على الفلاحين . الرجل الذي يقوم بهذه المهمة هو ابن عشيرتي الطيب وصديق والدي ، جيمس أوف غلينز جيمس ستيوارت ، أخو آردزهيل غير الشقيق . هو الذي

يجمع الأموال ويتولى ادارة العملية .

كانت هذه المرة الأولى التي اسمع فيها باسم جيمس ستيوارت ذلك الرجل الذي ذاعت شهرته عندما شنق فيما بعد . ساعتهالم يهتم بالاسم لأن كل اهتمامي كان منصباً حينذاك على التفكير بكرم أولئك الفلاحين السكوتلانديين المساكين . قلت :

ـ أنا أسمّي هذا نبلاً . أنا من حزب الملك أو أحسن من هذا بقليل ، ومع ذلك اسمي هذا نبلاً .

فقال :

ـ إي . أنت من حزب الملك ، الا أنك سيد شريف . وهذا مايعوض . لو أنك أحد أفراد سلالة كامبل الملعونة ، لكنت جعلتك تندم على حمل هذا الاسم . لو أنك «الثعلب الأحمر» ..

لفظ هذا الاسم من بين أسنانه المطبقة غيظاً وكف عن الكلام . كنت رأيت من قبل وجوهاً مكفهرة كثيرة ، لكني لم أر وجهاً بمثل اكفهرار وجه آلن حين لفظ اسم «الثعلب الأحمر» . سألته بفضول رغم خوفي :

ـ من هو الثعلب الأحمر ؟

لفظ هذا الاسم من بين أسنانه المطبقة غيظاً وكف عن الكلام . كنت رأيت من قبل وجوهاً مكفهرة كثيرة ، لكني لم أرَ وجهاً بمثل اكفهرار وجه آلن حين لفظ اسم (الثعلب الاحمر) .

سألته بفضول رغم خوفي :

ـمن هو الثعلب الاحمر ؟

فصاح آلن :

ـ من هو ؟ طيب . سأخبرك . عندما إنهزم رجال العشائر في «كالودن» وأنخذلت قضيتنا العادلة وداست الخيول على جثث أشرف الناس في الشمال اضطر آردزهيل الى الفرار مثل غزال مطارد مسكين بين الجبال ـ هو وحرمه وأطفاله . لشدما عانينا لكي نوصله

الى سفينة . وبينما كان مختبئاً في الاحراش راح الأوغاد الانكليز، الذين لم يجرؤوا على الظهور في أيام عزة، يستولون على أملاكه ويجردونه من حقوقه . جردوه من سلطاته . جردوه من أملاكه انتزعوا الأسلحة من أيدي أنصاره وأبناء قومه، الذين حملوا السلاح طوال ثلاثين قرناً . إي، نعم .. وجردوهم حتى من عباءاتهم التقليدية ـ وأصبح لبس العباءة الصوفية المخططة جريمة وصار الرجل الذي يلبس مايزيد على التنورة المقلمة(*) الآن يعرض نفسه للسجن . شيىء واحد لم يستطيعوا القضاء عليه هو حب أبناء العشيرة لزعيمهم . هذه الجنيهات هي الدليل . الآن بدأ أحدهم يد س أنفه، واحد من الكامبل هو (كولن أوف غلينر) ذو الشعر الأحمر .

سألته :

ـ أهذا من تدعوه «الثعلب الأحمر» ؟

فصاح آلن بضراوة :

ـ هل ستأتيني بذيله ؟ نعم، ذاك هو . يأتي ويحصل من الملك جورج على أوراق تجعل منه مايسمى «وكيل الملك» على أراضي آپن . في بداية الأمر يتسلل ويجامل (شاموس) ـ أي جيمس أوف غلينز، وكيل زعيمي . ثم عرف شيئاً فشيئاً كيف كان أهالي آپن الفقراء يكدحون ليل نهار في الحقول وفي كل مكان لتدبير مبلغ آخر يرسلونه عبر البحر الى آردزهيل وأطفالع المساكين . ماذا قلت عن هذا العمل حين اخبرتك عنه ؟

أجبت :

ـ قلت إنه عمل نبيل ياآلن .

فصاح آلن :

ـ أنت الأحسن قليلاً من أنصار الملك ! حين وصل الخبر الى كولن روي ثار دم كامبل الأسود في عروقه . جلس الى مائدة النبيذ يصر

على أسنانه غيظاً . ماذا !
واحد من آل ستيوارت يحصل على كسرة خبز ولايقدر هو على حرمانه منها ؟ آه ! أيها الثعلب الأحمر لو وقعت بيد فليرحمك الله !

توقف آلن عن الكلام ليبتلع غضبه قبل أن يمضي قائلاً :

ـ طيب ياديڤيد .. ماذا تراه يفعل ؟ يعلن عن إعادة تأجير جميع المزارع ، قائلاً لنفسه المريضة : «سآتي قريباً بمستأجرين جدد يزايدون على آل ستيوارت وماك كول وماك كروب هؤلاء» (كل هؤلاء من أبناء عشيرتي ياديڤيد) . ويفكر مع نفسه : «على آردزهيل بعد الآن أن يتسول على قارعة الطريق في فرنسا» .

سألته :

ـ حسناً ، ماذا حصل بعدئذٍ ؟

فوضع غليونه ، الذي انطفأ منذ وقت طويل ، جنباً ووضع يديه على ركبتيه وقال :

ـ آه ، شيء لايخطر قط على بالك ! لأن نفس آل ستيوارت هؤلاء (الذين يدفعون الإيجار قسراً للملك جورج ويبعثون الأموال الى أردزهيل طوعاً وحباً) عرضوا عليه سعراً أحسن مما عرضه أي واحد من آل كامبل في سكوتلانده كلها . صار يبعث اليهم في كل مكان من جوانب كلايد الى أدنبره ، يحرضهم ويتوسل إليهم أن يأتوا لينتزعوا لقمة الخبز ممن ينتمي الى آل ستيوارت ويبهجوا قلب الكلب أحمر الشعر من آل كامبل .

قلت :

ـ طيب ياآلن . تلك حكاية غريبة ، وطريفة أيضاً . وأنا مسرور لفشل الرجل ، حتى لو كنت واحداً من حزب الملك .

فهتف آلن :

ـ هذا يفشل ؟ أنت لاتعرف سوى القليل عن آل كامبل ، وأقل من ذلك عن الثعلب الأحمر . هو يفشل ؟ كلا . ولن يكف الا بعد أن

يسيل دمه على سفح تل ! إذا حانت الساعة ، ياديڤيد يارجل ، ووجدت الوقت والفراغ لجولة صيد فلن يجد في سكوتلانده كلها أحراشاً تكفي لاخفائه من انتقامي !

قلت :

ـ ياآلن الرجل ، أنت لست حكيماً ولامسيحياً حقاً والا ماانفجرت بكل هذه الكلمات الغاضبة . فهي لن تعود على الرجل الذي تدعوه «الثعلب الأحمر» ولاعليك بأي خير . إحك لي القصة كلها بصراحة . ماذا فعل بعدئذ ؟

قال آلن :

ـ هذه ملاحظة طيبة ياديڤيد . الحقيقة والواقع أنهم لن يؤذوه ، بل قل يشفقون عليه ! أما عن المسيحية (التي لي فيها رأي آخر والا ماكنت مسيحياً) فأنا مسيحي بكل ماتراه .

قلت :

ـ رأي في هذا أو رأى في ذاك . المفهوم أن المسيحية تمنع الانتقام .

فقال :

ـ نعم ، واضح أنك تتلمذت على يد أحد آل كامبل . فهو عالم ملائم لهم ولامثالهم طالما ليس فيه غلام وبندقية وراء أجمة ! لكن هذا لاعلاقة له بالموضوع . إليك مافعل

قلت :

ـ إي . أدخل في الموضوع .

قال :

ـ حسناً ياديڤيد . لما كان لايستطيع التخلص من الفلاحين والأهالي المخلصين بقوة السلاح ، أقسم مع نفسه على التخلص منهم بالحيلة . كان كل همه أن يجعل آردزهيل يتضور جوعاً . ولما كان شراء ذمم الذين يساعدونه على العيش في المنفى غير ممكن بأي شكل ، فقد قرر هذا أن يطردهم من أراضيهم . فأرسل في طلب

محامين وأوراق قانونية وذوي الستر الحمر ليدافعوا عنه .

كان على أهالي البلد الطيبين أن يلموا حاجياتهم ويرحلوا .. ويغادر الابن بيت الآباء والأجداد ، المكان الذي فيه ولد وتربى ولعب أيام الصبا . ومن سيخلفهم ؟ شحاذون حفاة ! الملك جورج يومىء فتأتي الأموال . يجب أن يقنع بالقليل ماذا يهم كولن الأحمر لو شحت الأموال بيد الملك ؟

لو أمكن أن يؤذي آردزهيل ـ تلك أمنيته . لو استطاع أن يحرم أطفاله من اللحم وينتزع من أيديهم اللعب القليلة التي يتسلون بها لعاد الى بيته يغني فرحاً !

قلت :

ـ دعني أقول لك كلمة . تأكد أن للحكومة يداً في هذه الأعمال.

هذا ليس ذنب كامبل يارجل ـ هذه أوامر يتلقاها . لو قتلت كولن هذا غداً فبماذا تستفيد ؟ سيأتي وكيل آخر ليحل محله ، بأسرع ماتعدو به حوافر الخيل .

قال آلن :

ـ أنت ولد جيد في القتال . لكن يارجل ! دم الموالين للملك جورج يملأ عروقك !

كان يتكلم بلطف ومودة ، لكن غضباً شديداً يتستر وراء كلماته حتى أني رأيت من الحكمة أن أغير موضوع الحديث . عبرت له عن استغرابي لعدم وقوعه في أيدي جنود الملك اثناء خروجه ودخوله ، وهم الذين يفرضون على البلد حالة تشبه الحصار . فقال آلن :

ـ إنها أبسط مما تتصور . سفوح التلال الجرداء (كما تعلم) هي بمثابة طرق . حين أرى جندياً على هذا الجانب الآخر . ثم لاتنسَ مساعدة الأحراش . وفي كل مكان أجد بيت صديق أو حظيرة أو مخزن غلال لصديق . أضف الى ذلك أن الناس حين يتحدثون عن الجنود الذين يسيطرون على كل مكان فذلك من باب السخرية في

أحسن الاحوال . لأن الجندي هنا لايسيطر على مكان اكثر من موضع قدميه ، مرة اصطدت سمكاً من نهر على مرأى من جندي على التل المقابل . واصطدت سمكة سلمون فاخرة . ومرة اختبأت في دغل على بعد ستة أقدام من الحارس وتعلمت منه لحناً جميلاً كان يدندن به . هذا هو..

قال هذا وراح يصفر لي باللحن . وتابع حديثه :

ـ ثم أن الوضع الآن ليس أسوأ مما كان عليه عام ستة وأربعين (عام ٤٦) . فقد تمت تهدئة الوضع كما يقولون في الأراضي المرتفعة . لاغرابة في ذلك بعدما جردوا البلاد كلها ، من (كانتاير) حتى أقصى كيب راث (رأس الغضب) من كل سلاح أللهم الا بعض الأسلحة التي خبأها الاهالي العقلاء في سقوف اكواخهم الطينية ! لكن ما أود معرفته ياديڤيد هو الى متى ؟ ستقول : لن تطول المحنة مع وجود رجال مثل أردزهيل في المنفى ورجال مثل الثعلب الأحمر يحتسون النبيذ ويضطهدون الفقراء في البلد . لكن من الغباء أن تقرر مايتحمله الناس ومالايتحملوه . والا لماذا تجد كولن الأحمر يتجول على حصانه في جميع أنحاء بلدي آبن المسكين ولايخرج اليه ولد نجيب ويضع رصاصة في رأسه ؟

عند هذا الحد غرق آلن في التفكير وجلس فترة طويلة حزيناً صامتاً .

سأضيف الى مايجب أن أذكره عن صديقي ، فأقول إنه كان بارعاً في جميع انواع الموسيقىٰ ، وخاصة موسيقىٰ القرب . وشاعراً بارعاً بلغته الأصلية . قرأ كتباً عدة بالفرنسية والانكليزية ، وكان هدافاً لايخطىء وصياد سمك ماهراً ومبارزاً بالسيف القصير مثلما هو بارع بسيفه الطويل نفسه . أما عيوبه فيمكنك أن تقرأها على وجهه ، وأنا أعرفها كلها . أسوأها هذا الميل الطفولي ، الى الهياج والدخول في شجارات ، الذي تخلى عنه معي الى حد كبير إكراماً

لدوري في معركة الحجرة الدائرية .

أما أن يكون هذا الاكرام لأني أبليت بلاء حسناً في المعركة أو لأني كنت شاهداً على قوة بأسه فأمر لاأستطيع الجزم به . لأن آلن ، رغم تقديره العظيم لشجاعة الآخرين لايؤمن بأن لشجاعته هو نظيراً .

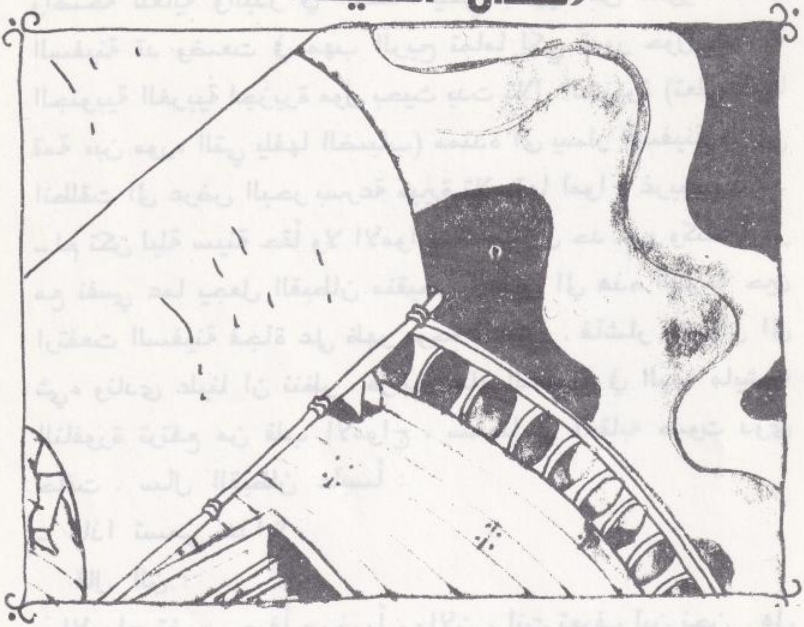
و٣و٤

(*) المقصود بالثورة الكبرى ثورة الأمير تشارلي النحيف (تشارلس ستيوارت) عام ١٧٤٥ - ١٧٤٦ على الملك الانكليزي جورج في محاولة لاستعادة العرش البريطاني لعائلة ستيوارت السكوتلاندية التي اقصيت عن الحكم في الثورة الجليلة في الثمانينات من القرن السابع عشر .

(*) الحرس الأسود : كناية عن الكتيبة الثانية والاربعين الجبلية السكوتلاندية وإنما سميت بهذا الإسم بسبب عباءات أفرادها السود المخططة .

(*) الكلت (REEL)تنورة من الصوف المحقق يلبسها الرجال السكوتلانديون .

الفصل الثالث عشر
(فقدان السفينة)



كانت ساعة متأخرة من الليل والظلام بأشد مايكون عليه في مثل هذا الفصل من السنة (أي أن الجو مضيء حقاً) ، حين مد هوسيزن رأسه من باب الحجرة الدائرية . قال

ـ اسمعني ... تعال وانظر إن كنت تستطيع توجيه دفة السفينة .

فسأله آلن :

ـ أهذه واحدة من ألاعيبك ؟

فصاح القبطان :

ـ أتراني في حال من يحتال ؟ عندي ماأفكر به ـ سفينتي في خطر !

أقنعتنا نظراته الخائفة ونبرة صوته القلقة وهو يتحدث عن سفينته بأنه صادق كل الصدق ، فخرجنا أنا وآلن الى السطح دون

خوف من الغدر .

كانت السماء صافية والريح عاصفة شديدة البرودة كانت الرؤية واضحة للغاية والبدر في السماء يلقي بالمزيد من النور . كانت السفينة قد وضعت في مهب الريح تماماً لكي تدور حول الزاوية الجنوبية الغربية لجزيرة مول بحيث بدت تلال الجزيرة (تعلو عليها قمة «بن مور» التي يلفها الضباب) ممتدة الى يسار السفينة ، التي انطلقت الى عرض البحر بسرعة كبيرة تلاحقها أمواج غربية ثائرة .

ـ لم تكن ليلة سيئة حقاً ولا الأمواج خطيرة الى حد كبير وكنت افكر مع نفسي عما يجعل القبطان منقبض النفس الى هذه الدرجة حين ارتفعت السفينة فجأة على ظهر موجة شاهقة . فأشار القبطان الى شيء ونادى علينا أن ننظر . فرأينا أمام السفينة في البعد مايشبه النافورة ترتفع من قلب الأمواج ، سمعنا في أعقابه صوت دوي خافت . سأل القبطان عابساً :

ـ ماذا تسمي هذا ؟

قال آلن :

ـ الأمواج تضرب جرفاً صخرياً ، والآن ، أنت تعرف أين نحن . هل عندك خيار أفضل ؟

قال هوسيزن :

ـ آه ، ليته الجرف الوحيد .

وجاء الدليل . فما أن قال جملته هذه حتى انطلقت الى السماء نافورة أخرى في أقصى الجنوب . فصاح هوسيزن :

ـ هاك ! أنظر بنفسك . لو كنت أعرف بهذه الصخور ..

لو كانت عندي خرائط . لو كنت أبقيت على حياة شوان .. لاستين جنيهاً .. لا .. ولاستمائة كانت ستجعلني أغامر بسفينتي في مثل هذا الفخ الصخري ! ولكن ، أنت ياسيدي الذي يدير دفة سفينتنا ، أما عندك شيء تقوله ؟

فقال آلن :

ـ أفكر . لابد أن هذه هي (صخور توران) .

فيسأله القبطان :

ـ أهناك الكثير منها ؟

فأجاب آلن :

ـ صدقني ياسيدي أني لست ملاحاً . لكن أرجح أنها تمتد عشرة أميال .

فتبادل المستر ري ـ آتش والقبطان النظرات ، وقال القبطان :

ـ بلاشك . إنما أين هو ؟ لكن أرجح أنه هناك بجوار اليابسة عند الأفق .

فقال هوسيزن :

ـ هكذا ؟ علينا إذن أن نوجه السفينة بهذا الاتجاه يامستر ري ـ آتش . علينا أن نقترب بالسفينة من طرف جزيرة مول قدر المستطاع . كما أننا نحتاج الى التلال ياسيدي لنحتمي من عصف الريح . تذكر أن الفخ الصخري بمواجهتنا وقد تدفعنا الرياح اليه .

عندئذٍ أعطى أمراً الى ملاح عند الدفة (عجلة القيادة) وأرسل المستر ري ـ آتش ليصعد الى برج المراقبة في أعلى الصارية الأمامية . كان هناك خمسة أفراد على سطح السفينة ، بضمنهم الضابطان . هم كل من بقي سليماً (أوسليماً وراغباً في العمل) . وقد اصيب اثنان من البحارة الثلاثة بجروح فكان لابد للمستر ري ـ آتش أن يتسلق الى برج الصارية فصعد الى هناك وراح يراقب ويرسل المعلومات الى سطح السفينة . صاح :

ـ الرؤية من جهة الجنوب غير واضحة .

وبعد لحظات صاح :

ـ الرؤية أوضح من جهة اليابسة .

قال هوسيزن لآلن :

حسناً ، ياسيدي ، سنجرب طريقك . لكني كمن يسلم قياده الى رجل أعمىٰ . أبتهل الى الله أن تكون مصيباً .

فيلتفت آلن الي قائلاً :

ـ ادع من الله أن أكون مصيباً !

حين اقتربنا من منعطف الجزيرة بدأت النتوءات الصخرية تظهر هنا وهناك في طريقنا . وصار المستر ري ـ آتش ينادي علينا بين حين وآخر لنغير خط سيرنا تجنباً للصخور وكنا نفاجأ احياناً بصخور قريبة جداً ما أن تصطدم بها الامواج حتىٰ يتطاير رشاشها ويهطل علينا مثل مطر غزير .

ساعدنا وضوح الرؤية في الليل على رؤية هذه المخاطر كما لو كنا نسير في وضح النهار . وكان ذلك أدعى للخوف . ورأيت وجه القبطان وهو واقف الى جانب عجلة القيادة ينفخ في يديه من شدة البرد ، ويراقب وبدقة ويرهف السمع في الوقت نفسه دون كلل كأنه عمود من الفولاذ . صحيح أنه والمستر ري ـ آتش لم يثبتا جدارة في القتال ، لكني رأيتهما شجاعين في مواجهة مخاطر مهنتهما وزاد إعجابي بهما حين رأيت آلن شاحباً شحوباً شديداً . قال :

ـ واأسفاه ياديڤيد ، ليست هذه الميتة التي أريد ! ففصحت :

ـ ماهذا ياآلن . أخائف أنت ؟

فأجاب وهو يبلل شفتيه بلسانه :

ـ كلا . لكنك قد تتفق معي على أنها نهاية باردة .

كنا حينذاك قد درنا حول جزيرة آيونا وبدأنا نسير بمحاذاة شاطىء جزيرة مول . كان المد في طرف الجزيرة عالياً شديداً راح يطوح بالسفينة يميناً وشمالاً فوضع هوسيزن اثنين من البحارة للسيطرة على الدفة ، وهو يساعدهم من حين لآخر .

كان منظراً غريباً أن ترى ثلاثة رجال أشداء يلقون بكل قوتهم وثقلهم على دفة القيادة فتقاومهم (كأنها كائن حي) وتدفعهم . كانت

فترة خطيرة لو لم يكن خط سير السفينة خالياً بعض الشيىء من النتوءات الصخرية . ثم نادى المستر ري ـ آتش من برج المراقبة قائلاً إن الطريق أمامه خالية من العقبات . قال هوسيزن لآلن :

ـ كنت مصيباً . لقد أنقذت السفينة ياسيدي . سأذكر هذا حين نأتي الى تصفية الحساب .

أعتقد بأنه لم يكن يقول كلاماً وحسب ، بل كان يعني مايقول لأنه كان شديد التعلق بسفينته «الميثاق» . إنما كان ذلك ضرباً من الوهم . فقد سارت الأمور على غير ماتوقع . إذ يصرخ المستر ري ـ آتش :

ـ أبعدوها قليلاً . جرف صخري باتجاه الريح .

في نفس الوقت حمل المد السفينة ونفخت الريح في الأشرعة فدارت على نفسها واذا هي في مهب الريح . وماهي الا لحظات حتى اصطدمت بصخور الجرف بقوة رمت بنا كلنا أرضاً وأوشكت أن تلقي بالمستر ري ـ آتش من أعلى الصارية الى البحر .

نهضت في الحال . يقع الجرف الصخري ، الذي اصطدمنا به عند الطرف الجنوبي لجزيرة مول ، على مسافة قريبة من جزيرة صغيرة تدعى (إيرريد) على يسارنا . كانت الامواج من الارتفاع أحياناً مايجعلها تعبر من فوقنا الى الجانب الآخر وتنزل علينا الماء كالشلال . وكانت أحياناً أخرى تضرب السفينة المسكينة فتدفعها اكثر نحو نتوءات الجرف الصخري . وكانت الأشرعة تخفق بعنف والرياح تزأر والامواج تضرب صخور الجرف فترتفع منها نافورات هائلة تتلألأ مياهها في ضوء القمر وأحساس قوي بدنو الخطر .

هذه المناظر المخيفة أصابتني بالذهول وجعلتني لا أفهم شيئاً مما أرى .

فجأة لاحظت المستر ري ـ آتش والبحارة مشغولين بفك زورق الانقاذ الكبير فأسرعت لمساعدتهم وأنا في نفس حالة الذهول . لكن

ماأن مددت يدي للعمل حتى فارقني الذهول وعاد الصفاء الى ذهني . لم تكن مهمة سهلة . فالزورق ثقيل ويتوسط السفينة ومملوء بالحبال والكلاليب. وكانت الامواج تضربنا بشدة فنضطر الى ترك العمل والتمسك . بحبال الاشرعة حتى لاتجرفنا المياه الى البحر . لكننا كنا نعاود العمل بهمة أشد .

إنضم الينا ، في الوقت نفسه ، الجرحى الذين يستطيعون الحركة أما العاجزون منهم فكانت أصوات استغاثتهم وصرخاتهم تملأ نفسي حزناً .

لم يشاركنا القبطان . كان بادي الذهول . فقد وقف بجانب الصارية متشبثاً بالحبال يكلم نفسه ويئن بصوت عالٍ كلما ضربت الأمواج السفينة بالصخور .

كانت سفينته بالنسبة له أشبه بزوجة وطفل .

كان ينظر ، كل يوم ، الى سوء معاملة رانسم المسكين ، بلا مبالاة ، لكن عندما وصل الأمر الى السفينة صار يتعذب مثلها .

لاأذكر من تلك الساعات العصيبة سوىٰ شيىء واحد : أني سألت آلن ، وأنا انظر الى اليابسة التي تلوح في الأفق ، عما تكون تلك المنطقة فأجاب بأنها أسوأ منطقة بالنسبة له ، لأنها أرض آل كامبل .

طلبنا من أحد البحارة الجرحىٰ أن يراقب حركة البحر ويصيح محذراً . وكنا على وشك أن نفك الزورق الكبير وننزله الى البحر حين صرخ الرجل بذعر : «توقفوا ، بالله عليكم !» . أشعرتنا نبرة صوته بأن هناك شيئاً غير إعتيادي .

وصدق أحساسنا ، فقد جاءت موجة هائلة رفعت السفينة والقتها على جانبها . لاأدري إن كانت صيحة التحذير جاءت متأخرة أو أني لم أمسك بالحبال بقوة . كل الذي أدريه أن هذه الهزة العنيفة طوحت بي من فوق سياج السفينة الى البحر .

غطست وابتلعت كمية غير قليلة من ماء البحر ثم طفوت لحظة لمحت فيها القمر لأغطس ثانية . يقولون إن الإنسان يغرق في الغطسة الثالثة . إذن لابد أني أختلف عن غيري من الناس والا ماكنت لأجلس الآن أروي لكم ماحدث ، بعدما غطست مرات ومرات . راحت الامواج تتقاذفني وصرت ابتلع المزيد من الماء وشعرت بالاختناق وتخدرت حواسي حتى صرت لاأدري أكنت حزيناً أم خائفاً .

فجأة وجدتني أمسك بذراع صارية طافٍ ساعدني على العوم واذا بي أجد نفسي وسط مياه هادئة ، وبدأت استعيد وعيي .

اندهشت للمسافة التي حملتني اليها الأمواج بعيداً عن السفينة . ناديت بالتحية ، لكنها ماكانت تسمع نداء أوتحية . كانت تقاوم الغرق ، غير أن بعد المسافة وتلاطم الأمواج لم يسمحا لي برؤية زورق الانقاذ ، إن كانوا انزلوا الزورق الى الماء أصلاً .

وبينما أنا أحيي السفينة انتبهت الى أن بقعة الماء . الفاصلة بيننا خالية من الأمواج الصاخبة ، لكن المياه كانت تتقلب وتفور وتتكسر الى دوائر يخرج منها الزبد . وكانت بقعة الماء تنجرف حيناً الى أحد الجوانب مثل ذيل أ فعى ، وحيناً آخر تركد بلاحركة بضع ثوان تعود بعدها الى الحركة والفوران . لم أخمن ماتكون . كل ماهنالك أنها زادت من مخاوفي . أما الآن فأرجح إنها بقعة تستقر عندها حركة المد التي حملتني كل تلك المسافة بسرعة كبيرة وتقاذفتني بكل تلك القسوة لتتعب مني في نهاية الأمر فتقذف بي وبذراع الصارية على حافة اليابسة .

اضطجعت هناك وقد هدأت مخاوفي لتبدأ مخاوف جديدة هي أن الإنسان يمكن أن يموت برداً مثلما يموت غرقاً . كانت شواطىء جزيرة (إيرريد) تحيط بي من كل صوب واستطعت أن أرى على ضوء القمر بعض أجمات الشوك والنباتات البرية متناثرة هنا وهناك وبعض أشجار القدح بين الصخور . قلت في نفسي :

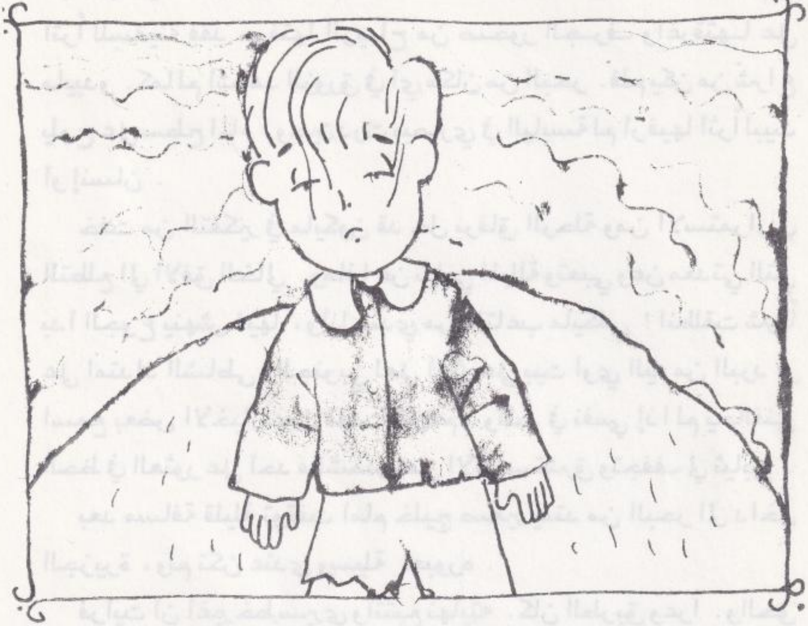
ـ عجيب ! أهذا كل ماوصلت اليه !

لم أكن أحسن السباحة فالمياه ضحلة في قريتي إيسن . لكنني حين تمسكت بقطعة الصارية بكلتا ذراعي ورحت أرفس الماء بقدمي وجدتني أطفو وأتحرك . كان عملاً شاقاً وبطيئاً بدرجة قاتلة . لكنني بعد ساعة من الرفس والدفع وصلت الى بقعة من خليج رملي تحيط به تلال واطئة .

كان البحر هادئاً تماماً في تلك البقعة ، فلاصوت لتكسر الأمواج على صخور الشاطىء . والقمر منيراً . قلت في نفسي إنني لم أزمن قبل مكاناً بمثل تلك العزلة والوحشة . كانت أرضاً جافة . وعندما اصطدمت قدماي بالقعر تركت خشبة الصارية ورحت اخوض الماء الى اليابسة .

لا استطيع القول ان كنت في تلك اللحظة شديد الاعياء أم شديد الفرح لنجاتي . كنت الاثنين معاً : مرهقاً بدرجة لم أصادفها في حياتي قبل تلك الليلة وفرحاً شاكراً الله على فضله كما أفعل دائماً ، بدرجة لا مثيل لها .

الفصل الرابع عشر
(الجزيرة)



بوصولي الى الشاطىء بدأت أسوأ جزء من مغامراتي . كانت الساعة قد بلغت النصف بعد منتصف الليل . ورغم أن التلال كانت تحجب عصف الريح ، فان البرد كان شديداً . لم أجرؤ على الجلوس (ظاناً أني سأتجمد) ، بل نزعت حذائي ورحت أذرع الرمل جيئة وذهاباً وأدق على صدري طلباً للدفء . لم يكن هناك صوت إنسان أو دواب . حتى ولانعيق غراب رغم أنها كانت ساعة خروج الغربان . كل الذي سمعته صوت تكسر الأمواج على الجرف البعيد الذي ذكرني بالأخطار المحيطة بي وبصديقي . وجعلني المشي قرب ساحل البحر في تلك الساعة من الليل وذلك المكان المقفر الموحش أرتجف من الخوف .

حال مابدأت خيوط الفجر تلوح في الأفق انتعلت حذائي وصعدت الى

أحد التلال ـ أصعب سفح تسلقته حتى تلك اللحظة . فكنت أتعثر بالصخور الغرانيتية وأنكفيء على وجهي حيناً وأنجح في القفز فوق البعض حيناً آخر . وعندما بلغت القمة كانت الشمس قد أشرقت . لم أر أثراً للسفينة فقد جرفتها الرياح من صخور الجرف وأغرقتها على مايبدو . كما لم أشاهد الزورق في أي مكان من البحر . فلم يكن من شراع يلوح على سطح الماء . وحين درت ببصري في اليابسة لم أر فيها أثراً لبيت أو إنسان .

خفت من التفكير في مايكون قد حل برفاق الرحلة ومن الاستمرار في التطلع الي الأفق الخالي . وماذا عن ثيابي المبللة وتعبي وعن معدتي التي بدأ الجوع ينهش فيها ، وأنا عندي من المتاعب مايكفي ! انطلقت شرقاً على امتداد الشاطىء الجنوبي لعلي أعثر على بيت آوي اليه من البرد أو اسمع بعض الأخبار عمن فقدت أثرهم . وقلت في نفسي إذا لم يحالفني الحظ في العثور على أحد فالشمس على الأقل ستشرق وتجفف لي ثيابي .

بعد مسافة قليلة توقفت أمام خليج صغير يمتد من البحر الى داخل الجزيرة ، ولم تكن عندي وسيلة لعبوره .

فرأيت أن أغير خط سيري وأتتبع نهايته . كان الطريق وعراً . والحق أن كل جزيرة إيرريد ، بل وكل الجزء القريب من جزيرة مول الكبيرة ، عبارة عن فوضى من صخور الغرانيت والأحراش . أخذ الخليج يضيق وأنا أتقدم صوب طرفه ، ثم إذا به يأخذ بالاتساع على نحو غير متوقع . وقفت حائراً لا أدري ماالعمل . ثم تابعت السير الى أن بلغت موضعاً عالياً من الأرض . فلما صعدت أدركت الحقيقة المرة : لقد رماني الحظ على جزيرة صغيرة جرداء تحيط بي من كل جانب مياه البحر المالحة .

وبدلاً من أن ترتفع الشمس وتجفف ثيابي أمطرت السماء وهبط على الجزيرة ضباب كثيف فأصبحت في حال يرثى لها .

وقفت تحت المطر أرتجف ، حائراً لا أدري ماذا أفعل إلى أن خطر ببالي احتمال أن يكون الخليج مخاضة يمكن عبورها دون سباحة .

فعدت الى أضيق نقطة منه ونزلت الى الماء . ولكن ماأن تقدمت أقل من ثلاث ياردات حتى غطست غطسةً شديدة والى مافوق أذني . واذا كنت بقيت حياً لأحدثكم الآن فذلك بفضل العناية الآلهية . تبللت ثيابي فوق ماهي مبللة وصرت ارتجف من شدة البرد ومن الندم على حماقة تصرفي . وجاءت هذه الخيبة لتزيدني حزناً على حزن .

ثم تذكرت ذراع الصارية . إن العمود الخشبي الذي حملني الى هذا المكان يمكن بلاشك أن يحملني عبر هذا الخليج الصغير الهادىء الى بر السلامة . عندها انطلقت عائداً بكل همة صعوداً على قمم التلال لأحمل الدعامة الثقيلة وأعود بها . كانت مهمة شاقة من كل الوجـوه . ولولا الأمل الذي كـان يدفعني الى المضي لكنت رميت بنفسي من أعـلى التل واسترحت . أهلكني العطش ، لا أدري أن كان بسبب ماء البحر المالح الذي ابتلعته أم بسبب الحمى ، فكان علي أن أتوقف عن السير لأشرب من ماء البرك الصغير الراكدة .

وصلت أخيراً الى مدخل الخليج ، أقرب الى الموت مني الى الحياة . وأدركت من النظرة الأولى أن الدعامة الخشبية أبعد مما تركتها حين وصلت . نزلت الى الماء للمرة الثالثة .

كان الرمل ناعماً متماسكاً يأخذ بالانحدار تدريجياً . ورحت أخوض وانزل شيئاً فشيئاً حتى وصل الماء الى رقبتي تقريباً وصارت الامواج الصغيرة ترش وجهي بالماء . عند هذا العمق بدأت قدماي تبتعدان عن الأرض فلم أجرؤ على التقدم أكثر من ذلك . أما الدعامة الخشبية فقد كانت تتراقص على صفحة الماء على بعد عشرين قدماً مني .

لقد تحملت كل الخيبات السابقة صابراً حتى جاءت هـذه الخيبة الأخيرة . فعدت الى الشاطىء وارتميت على الرمل ورحت أبكي .

مازلت أرتعب لذكرى الفترة التي قضيتها على الجزيرة في كل الكتب التي قرأت عمن تلقي بهم الأقدار في أماكن معزولة عن العالم ، كنت أجد هؤلاء يحملون معهم غدداً أو يرسل لهم الحظ الى حيث تقذفهم الامواج

أمتعة وحاجيات تفي بالمرام . لكن حالي ليست من حال هؤلاء . فلم يكن معي شيىء سـوى نقودي وزر سـتـرة آلن الفضي . ولأني ولد عـاش وترعرع على اليابسة ، لم أكن أعرف ما العمل في ذلك المنفى المائي .

كنت أعرف أن المحار يعتبر طعاماً طيباً . وقد وجدت بـين صخور كميـات كبيرة من الـرخويـات ذات الأصداف المخـروطية المفتـوحة والحلازين الصغيرة . في البداية عجزت عن الامساك بواحدة منها الى أن ادركت أن سرعة الحركة ضرورية .

جعلت من هذه الرخويات غذائي فكنت ألتهم ما أصادفه منها نيئة باردة . كنت أتضور جوعاً الى الحد الذي جعلها تبدو لذيذة أول الأمر . ربما كانت ميتة أو أن أمواج البحر دفعت بها الى مكان غير مكانها المعتاد . المهم أني ما أن تناولت وجبتي الأولى منها حتى استولى علي دوار وغثيان ورغبة في التقيؤ وانطرحت أرضاً مدة طويلة أشبه بالميت . على أن الوجبة التالية (ماكان عندي طعام غيرهـا) أفادتني وجـددت قواي . ومع ذلك بقيت طول مكوثي في تلك الجزيرة أجهل نوعية المحار الذي آكل . فتارة أشبع وارتاح وتارة أقع فريسة للغثيان والحمىٰ . ولم استطع معرفة أية قواقع كانت تسبب لي المرض .

ظل المطر ينهمر طوال النهار حتى غدت الجزيرة مثل خبزة منقوعة بالماء . فلم أجد بقعة جافة . وعندما جن الليل نمت بين صخرتين كبيرتين كانتا بمثابة سقف ، بينما قدماي في بركة صغيرة . في اليوم التالي عبرت الجزيرة بكل الاتجاهات . فلم أجد فيها موضعاً أحسن من غيره . كانت جزيرة منقطعة صخرية لا يعيش عليها سوى طيور الصيد التي ماكنت أملك وسيلة لصيدها ، والنورس التي تغشى صخور الجزيرة الخارجية بأعداد غفيرة . لكن المضيق الذي يفصل الجزيرة عن أرض (روس) الكبيرة ينفذ الى خليج كبير من الناحية الشمالية ينفتح بدوره على خليج آيونا (ساوند أوف آيونا) . وقد أخترت هذه البقعة بيتاً لي . لو أني فكرت في حينه بأن يكون ذلك المكان المقفر بيتاً لي لكنت أجهشت بالبكاء .

كانت وراء اختياري لذلك المكان أسباب وجيهة . فقد كان هناك كوخ صغير ، أشبه بزريبة الخنازير ، كان الصيادون يأوون إليه في الليل حين يأتون للصيد قرب الجزيرة . لكن سقف الكوخ ، المصنوع من خليط الطين والأعشاب كان قد سقط كلياً . فما وجدت في الكوخ ملاذاً أفضل من الصخور . الأهم من هذا أني وجدت المحار الذي كنت أعيش عليه يتوفر هناك بكميات كبيرة بعد إنحسار الماء . وكان ذلك مبعث ارتياح لي دون شك . سبب آخر أعمق من هذا . فأنا لم أستطع بأي شكل التعود على هذه الوحدة الرهيبة في الجزيرة ، وبقيت أبحث عن مهرب في كل مكان (مثل رجل مطارد) وأنا بين الخوف والرجاء أن أرى إنساناً هنا أو هناك . كنت استطيع أن أرى من فوق التلال كنيسة آيونا الموغلة في القدم وسقوف منازل الناس المتناثرة من حولها . وكنت أرى من جهة (روس) الدخان يتصاعد من مداخن البيوت البعيدة ليل ونهار .

صرت أنظر الى الدخان ، وأنا مبلل بردان وقلبي يعصره الهم ، وأفكر بالمواقد والدفء حتى يشتعل قلبي حزناً . وكذا الحال مع سطوح منازل آيونا . صحيح أن منظر البيوت والحياة المريحة هناك كان يضيف الى عذابي عذاباً آخر ، الا أنه كان في الوقت نفسه يمدني بالأمل ويجعلني أتحمل أكل الرخويات اللزجة النيئة (التي سرعان ماصرت أشمئز منها) ، وينقذني من الشعور بالرعب كلما وجدت نفسي وحيداً بين الصخور الجرداء والطيور والأمطار والبحر البارد .

أقول إنها كانت تمدني بالأمل ، فقد كنت أرى أن من المستحيل أن أترك لأموت على سواحل بلدي وعلى مقربة مني برج كنيسة وبيوت ناس يتصاعد منها الدخان . ومر اليوم الثاني . ورغم أني بقيت أترقب قدوم زورق أوناس طالما بقي ضوء في الجو ، فإن انتظاري ذهب سدى . وظلت السماء تمطر وذهبت للنوم مبللاً كالسابق وحنجرتي ملتهبة . لكن ربما كان في تحيتي للناس في آيونا عن بعد شيئاً من العزاء لي

مرة صرح (جارلس الثاني) أن المرء يستطيع البقاء خارج البيت في

إنكلترا فترة أطول منها في أي مكان آخر . واضح أن هذا كلام ملك وراءه قصر وأكداس من الثياب الجافة ولابد أنه كان أثناء هروبه من «ووستر» أسعد حظاً مني أنا على هذه الجزيرة البائسة . كنا في ذروة الصيف . ومع ذلك كان المطر ينهمر ليل نهار بلا انقطاع ولم يصف الجو الا في عصر اليوم الثالث .

كان ذلك يوم الأحداث ، ففي الصباح رأيت أيلاً أحمر ، ظبياً ذا قرون متشعبة جميلة ، واقفاً على قمة تل تحت المطر ، ما أن رآني أنهض من بين الصخور حتى انطلق هارباً الى الجهة الأخرى . فافترضت أنه لابد عبر المضيق المائي سباحة وقلت في نفسي متعجباً ماالذي يجعل مخلوقاً ، أي مخلوق ، يأتي الى جزيرة إيرريد !

بعد هذا بفترة وجيزة رحت أقفز بين الصخور بحثاً عن المحار فاندهشت لرؤية جنيه ذهبي في الماء أمامي . حين أعاد البحارة الي نقودي ، لم يكتفوا بأخذ ثلث المبلغ ، بل وأخذوا حافظة نقود أبي الجلدية أيضاً . فصرت منذ ذلك اليوم أحمل نقودي مع زر سترة آلن في أحد جيوبي . إذن فلابد أن جيبي مثقوب ، أمسكت بالجيب بقوة . إنما كانت تلك الحركة تشبه إغلاق بوابة الحظيرة بعد هروب الماشية . عندما غادرت ميناء كوينزفيري كان معي مايقرب من خمسين باوناً . أما الآن فليس في جيبي سوى جنيهين ذهبيين وشلناً فضياً .

صحيح أني التقطت بعد مسافة قليلة جنيهاً ذهبياً آخر وجدته يتلألأ على بقعة صغيرة من الطحالب لتصبح لدي ثروة بالنسبة لصبي هو الوريث الشرعي لإقطاعية ، يعاني الجوع على جزيرة منعزلة في أقصى المرتفعات السكوتلاندية النائية .

أحزنتني هذه الحالة أشد من ذي قبل وبلغ قنوطي في صباح اليوم الثالث درجة يرثى لها . فبدأت ثيابي تتعفن وتمزقت جواربي خاصة كاشفة عن ساقي للبرد والمطر وارتخى جلد يدي من استمرار البلل ، واشتد التهاب حنجرتي ، وخارت قواي وعافت نفسي الطعام الكريه

الذي كتب علي أن آكله حتى صرت أصاب بالغثيان لمجرد رؤيته . وكان في انتظاري ماهو أسوأ .

كانت هناك صخرة شاهقة في الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة (كانت منبسطة من فوق وتشرق على الخليج) . كان من عادتي أن أصعد اليها ، فلا أمكث الا قليلاً أنطلق بعده الى مكان آخر . كانت لهفتي الى الخروج من الجزيرة تجعلني دائم التنقل والبحث عن سبيل للخلاص فلا أهجع الا في ساعات الليل ، حتى خارت قواي من الرواح والمجيء تحت المطر .

حال ما أشرقت الشمس تمددت على تلك الصخرة لأجفف نفسي وثيابي . لشدما استمتعت بدفء الشمس . فقد أنعش روحي وجعلني أعاود التفكير بالخلاص بعدما يئست . جلت ببصري في البحر وجزيرة روس أتاملهما بإمعان . فوجدت أن الى الجنوب من الصخرة لسان من تلال الجزيرة يمتد الى المحيط فيحجب الرؤية بحيث يمكن أن يأتي زورق الى موضع قريب مني ولا أراه .

فجأة رأيت زورق صيد صغيراً ذا شراع اسمر فيه إثنان من الصيادين ، قادماً من حول الجزيرة باتجاه آيونا . ناديت على الرجلين ثم ركعت على ركبتي ورفعت يدي اليهما متوسلاً .

كانا قريبين بما يكفي لأن يسمعا ندائي - كنت أستطيع تمييز لون شعرهما ولاشك أنهما شاهداني لأنهما هتفا بكلمات غيلية وضحكا . لكن الزورق لم يتجه الي ، بل يمم شطر آيونا أمام عيني .

لم استطع أن أصدق أن في الناس أشراراً الى هذا الحد ، فرحت أركض على إمتداد الشاطىء من صخرة الى أخرى أنادي عليهما واستعطفهما .

وبقيت أصرخ وألوح بيدي وهما يبتعدان عن مدى صوتي حتى كاد قلبي أن ينشق من شدة الصياح . في محنتي تلك بكيت مرتين : مرة حين

عجـزت عن الوصـول الى ذراع الصاريـة والثانيـة الآن حـين مضى الصياد ان ولم يصغيا لصرخاتي . لكنني بكيت هذه المرة ودمدمت غيظاً مثل طفل مهتاج ، ممزقاً الطين والأعشاب بأظافري ، ممـرغاً وجهي بالتراب . لوكانت الرغبة وحدها تقتل الناس لما أصبح الصبح على ذينك الصيادين ولكنت مت من ساعتي على أرض الجزيرة .

حين هدأ خاطري قليلاً شعرت بالجوع فاندفعت آكل القواقع بجنون لا أقدر على التحكم فيه . ليتني صمت عن الطعام .

فقد سممتني الهلاميـات التي أكلتها ثـانية وعـادت الي أوجاعي الأولى ، فاذا حنجرتي ملتهبة الى حد الانسداد وانتابتني نـوبة بـرد فصرت أرتجف بشـدة وأسناني تصطـك . ثم هاجمني ذلـك الشعور الفظيع بالحمى ، شعور لانملك له اسماً بالسكوتلاندية أو الانكليزية . اعتقدت بأني ميت لامحالة فصليت لله وسامحت كل الناس ، حتى عمي والصيادين . وما أن تمددت أرضاً لاستقبال الموت حتى صحوت من حالتي : فوجدت السماء صافية وثيابي جافة بدرجة جيدة حقاً ، وأنا في حال أفضل من أي وقت مضى منذ وصولي الى الجزيرة ، فقررت أخيراً أن أذهب الى النوم ونفسي يغمرها شعور بالامتنان والحمد لله .

في اليوم التالي (الرابع من أيام محنتي الشديدة في الجزيرة) وجدتني منهوك القوىٰ . لكن الشمس أشرقت ولطف الهواء وكان القليل الذي اكلته من المحار ملائماً فاستعدت عافيتي وشجاعتي .

ماكدت أصعد الى الصخرة العالية (وهذا ماكنت أفعله دائماً بعد الاكل مباشرة) حتى رأيت زورقاً قادماً من جهة خليج (الساوند) وكان قادماً نحوي على ماأظن .

فتنازعني الأمل والخوف ـ قائلاً في نفسي إن الرجلين ربما ندما على قسوتهما وعادا لانقاذي . أما أن أصاب بخيبة أمل أخرى فذلك مالا أحتمله . وعلى هذا أدرت ظهري للبحـر ولم ألتفت الاّ بعدمـا عددت بالمئات . رأيت الزورق مايزال متجهاً الى الجزيرة . فعددت هذه المرة الى

الألف ببطء حتى أهدىء قلبي الذي كان يخفق بشدة ... ثم .. لا مجال للشك الآن . فالقارب متوجه الى الجزيرة !

لم أعد استطيع السيطرة على مشاعري ، بل ركضت الى الشاطىء أقفز من صخرة الى أخرى بكل ما في من طاقة . الغريب في الأمر أني لم أقع في الماء وأغرق . لأني حين توقفت أخيراً عجزت ساقاي عن حملي . وكان فمي يابساً فاضطررت الى ترطيبه بماء البحر لأستطيع الصياح .

كان الزورق ، آنذاك ، يقترب حتى تبين لي أنه نفس زورق الأمس يحمل نفس الرجلين . عرفتهما من شعرهما . فكان أحدهما ذا شعر أشقر فاتح والآخر اسود الشعر . إنما جاء برفقتهما هذه المرة رجل يبدو من الوجهاء .

وحال ما اقتربوا الى حد سماع الكلام أنزلوا الشراع وأوقفوا الزورق . ولم يقتربوا من الشاطىء رغم رجاءاتي وتوسلاتي . وما أرعبني أكثر من ذلك أن الرجل الثالث راح يضحك ساخراً وهو يتحدث مع رفيقيه وينظر الي .

ثم انتصب واقفاً وسط الزورق وخاطبني . فتحدث طويلاً وبسرعة مع حركات كثيرة باليدين . اخبرته بأني لا أفهم اللغة الغيلية فغضب غضباً شديداً . عندئذٍ انتبهت الى أنه كان يعتقد بأنه يتكلم الانكليزية . وحين أرهفت السمع التقطت أذني عبارة «مهما يكن» عدة مرات . أما بقية الكلمات فكانت غيلية وربما يونانية أو عبرية بالنسبة لي . قلت أنا :

ـ مهما يكن ..

لأريه أني فهمت كلمة مما يقول . فقال :

ـ نعم ، نعم ـ نعم ، نعم

والتفت الى الرجلين الآخرين كما لو أنه أراد القول : «هاكم ! ألم أقل لكم إني أتكلم الانكليزية !» . ثم انطلق يتكلم بلغته الغيلية بسرعة كالسابق .

التقطت هذه المرة كلمة «المد» فانتعشت آمالي .

ثم تذكرت أنه كان طوال الوقت يشير بيده الى جهة اليابسة .

فصحت :

ـ أتعني أنه حين ينحسر المد ... ؟

ولم استطع إكمال جملتي . فقال :

ـ نعم ، نعم ... المد .

عندها أوليتهم ظهري (في تلك اللحظة كان الرجل قد عاود ضحكه الذي يشبه النهيق) وعدت من حيث جئت أقفز من صخرة الى أخرى ، ثم انطلقت أركض عبر الجزيرة بسرعة لامثيل لها .

وبعد حوالي نصف ساعة وصلت الى شاطىء المضيق المائي فإذا به بعد انحسار المد لايزيد على مجرى مائي ضحل فنزلت لأخوضه فلم يصل ماؤه الى ركبتي ! وعبرت الى البر وأنا أصرخ إبتهاجاً .

إن اي صبي عاش في البحر ماكان ليبقى يوماً واحداً في جزيرة إيرريد التي لا تكون جزيرة مستقلة بمعنى الكلمة الا عن ارتفاع المد . كما يمكن الذهاب اليها والخروج منها مرتين على الاقل في اليوم من غير الفجوات المائية العميقة . حتى أنا ، الذي كان يشهد حركة المد والجزر في الخليج أمامه وينتظر الجزر (إنحسار الماء) ليجمع المحار لطعامه .. حتى أنا (أقول) لو كنت جلست للتفكير بدل التذمر وصب اللعنات على الحظ ، لكنت خمنت السر وحررت نفسي من الجزيرة .

فلاعجب أن لايفهمني الصيادان ، إنما العجيب أنهما أدركا محنتي فعادا لمساعدتي . لقد عانيت الجوع والبرد في تلك الجزير قرابة مئة ساعة . أما الصيادان فربما تصورا أني كنت سأموت لو بقيت هناك ، جراء حماقتي . ومع ذلك فقد دفعت الثمن غالياً لابما عانيته في تلك الأيام فقط ، بل بما انتهت اليه حالي فهاهي ثيابي ممزقة بالية مثل ثياب الشحاذين وساقاي لاتقويان على حملي وحنجرتي ملتهبة مريضة .

لقد رأيت أشراراً وحمقى كثيرين ، وأعتقد بأن كليهما يدفع الثمن في نهاية الأمر ، إنما الحمقى هم الذين يدفعون الثمن أولاً .

الفصل الخامس عشر
(الصبي ذو الزر الفضي في جزيرة مول)



كانت أرض روس في جزيرة مول ، التي وصلت اليها أخيراً . أرضاً صخرية وعرة شبيهة بالجزيرة التي غادرتها تواً . فهي شبكة من المستنقعات والورود البرية والصخور الضخمة . ربما يعرف ابن المنطقة مسالكها ودروبها . أما أنا فكان دليلي أنفي والعلاقة التي أهتدي بها قمة (بن مور) العالية .

توجهت صوب مصدر الدخان الذي كنت أراه دائماً من مكاني في الجزيرة . وأستطعت أخيراً ، رغم شدة تعبي ووعورة الطريق ، الوصول الى البيت القائم في بطن وادٍ صغير حوالي الخامسة أو السادسة مساء . كان بيتاً من الصخر العاري أميل الى الطول واطىء السقف . ورأيت أمام البيت سيداً عجوزاً جالساً على دكة

صخرية يتشمس ويدخن غليوناً .

فهمت منه ، على قلة الكلمات الانكيزية التي يعرفها ، أن رفاق السفينة قد نجوا من الغرق وأنهم تناولوا طعاماً بنفس البيت في اليوم الثاني لغرق السفينة . سألته :

ـ أكان بينهم سيد أنيق الثياب ؟

فقال إنهم جميعاً كانوا يرتدون معاطف ثقيلة ، ولكن أول القادمين ، الرجل الذي وصل بمفرده ، كان لابساً سروال ركوب وجوارب طويلة ، بينما الباقون سراويل البحارة .

قلت :

ـ آه ! ويحمل قبعة ذات ريش ؟

فأجاب بالنفي قائلاً انه كان حاسر الرأس مثلي .

ظننت ، أول الأمر ، أن آلن أضاع قبعته . ثم تذكرت المطر فرجحت أنه اخفاها تحت معطفه ليقيها من التلف . هذه الفكرة جعلتني أبتسم ـ أولاً لأن صديقي نجا من الغرق ، وثانياً لأني تذكرت كم هو يبالغ بأناقة ملبسه .

ثم إذا بالسيد العجوز ينقر جبهته باصبعه ويصيح قائلاً عني أني لابد أن أكون الصبي صاحب الزر الفضي .

فقلت بشيىء من العجب :

ـ عجباً ، أجل !

فقال الرجل :

ـ حسناً إذن . عندي لك رسالة تركها لك صديقك أن تلحق به في بلده (توروسي) .

وسألني الشيخ عن طعامي فرويت له حكايتي . لو كان السامع رجلاً من أبناء الجنوب لضحك لكن هذا السيد العجوز (أنا أدعوه سيداً لدماثة أخلاقه ، غير ناظر الِى ثيابه البالية) أصغى الي برزانة وشفقة ، وأخذ بيدي الى كوخه (لم يكن أفضل من ذلك) وقدمني الى

زوجته كمن يقدم أميراً الى ملكة .

وضعت المرأة الطيبة أمامي خبز شوفان ولحم طير بري بارد وربتت على كتفي . وكانت تبتسم لي طول الوقت لأنها ما كانت تعرف كلمة انكليزية واحدة . ولم يكن الشيخ أقل كرماً فأعد لي قدحاً من شراب «البنتش» من مخزونهم الخاص . كنت طوال فترة الأكل حتى عندما رحت أشرب النبيذ القوي ، لا أصدق أني نجوت فعلاً من كل تلك المهالك وبدا لي ذلك البيت الذي تراكم على جدرانه سخام الموقد وملأته الثقوب مثل . مصفاة ، كأنه قصر .

جعلني شراب البنتش أسبح بالعرق وأنعس نعاساً شديداً فسمح لي العجوزان الطيبان بالنوم . ولم أبدأ رحيلي قبل ظهر اليوم التالي . كانت حنجرتي أحسن حالاً ومعنوياتي عالية بفضل الطعام الجيد والأخبار الطيبة . وقد رفض السيد العجوز أن يأخذ نقوداً رغم شدة إلحاحي ، بل إنه أعطاني قلنسوة (طاقية) عتيقة لأحمي بها رأسي : لا أملك الا الاعتراف لكم بأني ما أن ابتعدت عن البيت حتى أسرعت بغسل القلنسوة في نبع على جانب الطريق .

قلت في نفسي : «اذا كان هؤلاء هم أبناء المرتفعات التوحشين فياليت أبناء بلدي بمثل هذا المتوحشين» .

كنت قد بدأت رحيلي متأخراً . يضاف الى ذلك أني انفقت نصف الوقت تقريباً أمشي على غير هدى . رأيت في طريقي أناساً كثيرين يكدحون في حقول بائسة لاتكفي لاعالة قطة، اويسوقون امامهم ابقاراً هزيلة لاتزيد على الحمير حجماً. ولما كانت ملابسهم الجبلية الخاصة قد حرمت عليهم بموجب القانون منذ اندلاع التمرد وحكم على الناس أن يتطبعوا بطابع سكان الأراضي الواطئة التي ينفرون منها بشدة ، تراهم يلبسون أنواعاً عجيبة من الثياب . فترى البعض يمشي عارياً الا من عباءة أو معطف معلقاً بنطلونه على ظهره مثل حمل عديم الجدوى . والبعض قلد الطرطان(*) بإضافة ألوان ، عدا

الأسود والابيض ، تجعل منه أشبه بتنورات العجائز ، في حين ظل آخرون يلبسون التنورة الرجالية (الكت) بعدما خاطوها قليلاً من الوسط بما يجعلها تبدو مثل بنطلون هولندي قصير . هذه التحويرات كلها كانت ممنوعة محرمة ، لأن القوانين كانت تطبق بقسوة على أمل أن تكسر الروح القبلية . لكن جزيرة نائية تسبح في البحر الشمالي البعيد ليس فيها من يعلقون الا القليل وأقل منهم الواشون .

كانوا يعيشون في فقر مدقع (أو شديد) . وكان ذلك أمراً طبيعياً بلاريب بعدما توقفت أعمال السلب والنهب ولم يعد كبار القوم فاتحين أبوابهم لعابري السبيل والمحتاجين . حتى الطرقات (الغريبة المتشعبة في هذا الريف النائي) ازدحمت بالشحاذين . هنا أيضاً لاحظت الأمر يختلف عما هو في موطني . لأن شحاذينا ـ حتى ذوي الزي القانوني الذين يشحذون بموجب إجازة من الحكومة ـ يسألون الصدقات بالتذلل والرجاء ولو أعطيتهم قرشاً وطالبت بالباقي لأعادوا اليك نصفه بكل أدب . أما شحاذو الشمال هؤلاء فيطلبون الصدقات بكل كبرياء ليشتروا بها نقمة على الحكومة (على حد تعبيرهم) ولايعيدون لك باقي المبلغ مهما كان .

لم يكن هذا يعنيني بأكثر من كونه تسلية لي في طريقي . فما كان يهمني هو أن أجد من يتكلم الانكليزية . ولم أجد غير القليل . ومن صادفته في طريقي لم يشأ أن يضع معرفته المحدودة بالانكليزية في خدمتي (باستثناء بعض الشحاذين من أعضاء رابطة الاخوة) . كنت أقصد (توروسي) وكنت اكرر الاسم لكل من أصادفه وأشفع كلامي بالاشارات ، لكنهم بدلاً من إرشادي والرد علي بالإشارة ، كانوا يلقون علي خطباً طويلة باللغة الغيلية تتركني حائراً . فليس غريباً أن أسير على غير هدى مرات ومرات .

أخيراً وصلت الى بيت ، وحيد في المنطقة ، وكانت الساعة قد

بلغت الثامنة مساء والاعياء بلغ بي درجة كبيرة . التمست الدخول فرفض أصحاب البيت فتذكرت أن للمال قوة في بلد فقير كهذا فاخرجت جنيهاً ذهبياً ممسكاً به بين سبابتي وابهامي . واذا برجل البيت ، الذي تظاهر بأنه لا يفهم الانكليزية وطردني من بابه بالإشارة ، يبدأ فجأة بالتكلم بلغة انكليزية واضحة ويتفق معي على مبلغ خمسة شلنات لقاء المبيت وإرشادي في اليوم التالي الى مدينة توروسي .

لم أنم تلك الليلة مخافة أن تسرق نقودي . لكن كان علي أن أوفر على نفسي تلك المشقة ، لأن صاحب البيت لم يكن لصاً ، بل رجلاً شديد الفقر ومحتالاً كبيراً . على أن الرجل لم يكن وحيداً في فقره لأنه أخذني معه مسافة خمسة أميال الى بيت رجل ـ يعتبره هو غنياً ـ ليصرف أحد جنيهاتي الذهبية . ربما كان ذلك الرجل غنياً بالنسبة الى اهالي جزيرة مول . إن شخصاً كهذا ما كان ليعتبر ثرياً في الجنوب ـ لأن الجنيه الذهبي جعله يقلب البيت رأساً على عقب بحثاً عن الشلنات وساهم أحد الجيران بجانب من المبلغ حتى يجمع العشرين شلناً من الفضة اللازمة لصرف الجنيه . وأبقى الرجل لنفسه شلناً واحداً قائلاً إنه يخشى الاحتفاظ بمثل هذا المبلغ الجسيم «مقفولاً عليه» في بيته . وكان الرجل كريماً حسن القول فأصر على أن نجلس الى الغداء مع عائلته وأخرج لنا قليلاً من شراب البنتش في قارورة من الخزف الصيني الجميل . فبلغ دليلي النذل من نشوة السكر ماجعله يرفض الذهاب .

أوشكت أن أغضب والتمست تأييد الرجل الثري (كان اسمه هكتور ماكلين) الذي كان شاهداً على اتفاقي مع الدليل المحتال وعلى اعطائي اياه الشلنات الخمسة المتفق عليها ، لكن ماكلين نفسه أخذ منه السكر فأقسم الا نغادر مائدته بعدما بدأ الشرب . فلم يعد أمامي سوى الجلوس والاستماع الى الانخاب اليعقوبية والأغاني

الغيلية الى أن صار الجميع يترنحون من شدة السكر فمضى أهل البيت الى فراشهم ومضينا نحن الى مخزن التبن لنمضي الليلة .

في اليوم التالي (الرابع من أيام سفري) نهضنا قبل الخامسة . لكن دليلي الوغد بدأ يسكر حال استيقاظه ولم أستطع إخراجه من البيت قبل مضي ثلاث ساعات . ثم إذا به يخيب ظني (كما سأروي لكم الآن) .

سارت الأمور كما ينبغي ونحن نقطع الوادي الصغير ذا الأحراش الممتد أمام منزل ماكلين . كل ماهنالك أن دليلي كان ينظر الى الخلف باستمرار وعندما سألته عن السبب كشر ولم يجب بشيء . ولكن ما أن لففنا حول تل ولم نعد نرى نوافذ البيت حتى قال لي إن توروسي أمامي وأن قمة التل (مشيراً الى أحد التلال) هي العلامة التي استدل بها على الطريق فقلت له :

- هذا لايهمني مادمت آتياً معي .

فأجابني الرجل الوقح باللغة الغيلية بما معناه أنه لا يعرف الانكليزية . فقلت :

- إسمع ياصاحبي الفاضل . أعرف جيداً أن معرفتك الانكليزية تأتي وتروح حسب الظروف . قل لي ما الذي سيعود بها ؟ أترغب في المزيد من النقود ؟

فقال :

- خمسة شلنات أخرى .. «هي» التي ستوصلك الى هناك

فكرت قليلاً ، ثم عرضت عليه شلنين فقبل العرض بكل جشع لكنه أصر على أن يقبضها في الحال قائلاً إنها «تجلب الحظ» إنما هي جلبت لي سوء الحظ .

لم يحمله الشلنان الا مسافة قليلة ، وإذا به يجلس على جانب الطريق ويخلع حذاءه كمن يريد أن يستريح . كان الحر على أشده . قلت :

ـ ها ! نسيت الانكليزية ثانية ؟

فأجاب بوقاحة :

ـ أجل .

عند هذا الحد ثارت ثائرتي ورفعت يدي لأضربه ، فيما سحب هو سكيناً من تحت اسماله وأرتد الى الوراء متكوراً مكشراً كأنه قط وحشي . أمام هذه الحالة نسيت كل شيء الا غضبي ، فهجمت عليه وضربته بيسراي فأبعدت السكين جانباً ولكمته بيمناي على فمه . كنت فتى قوياً وفي حالة غضب شديد ، وكان هو رجلاً ضئيلاً ، فانهار وسقط أرضاً ، وطارت السكين من يده أثناء سقوطه لحسن الحظ .

فالتقطت السكين وحذاءه وودعته ومضيت في طريقي تاركاً الرجل الخبيث حافي القدمين مجرداً من السلاح . هنأت نفسي بالتأكيد لتصفية الحساب مع ذلك الوغد ـ لعدة أسباب . أولاً لأنه كان يدري أنه لا يستطيع أخذ المزيد من نقودي . وثانياً لأن حذاءه لم يكن يساوي في ذلك البلد سوى بضعة بنسات واخيراً لأن حمل السكين . التي كانت خنجراً في الحقيقة ، كان مخالفاً للقانون .

بعد حوالي نصف ساعة من المشي صادفت رجلاً عملاقاً خشناً يمشي بسرعة متلمساً طريقه بواسطة عصا . كان أعمى . أخبرني بأنه راهب متجول فشعرت بالارتياح . لكن وجهه كان عبوساً خطيراً غامضاً . وما أن سرنا معاً حتى لمحت مقبض مسدس تحت جيب سترته . إن حمل شيء كهذا يعرض المرء لغرامة خمسة عشر باوناً استرلينياً في المخالفة الأولى والنفي الى المستعمرات في المخالفة الثانية . عجبت لرؤية راهب يحمل سلاحاً وأكثر من هذا لرؤية رجل أعمى يحمل مسدساً .

رويت له ماحصل مع الدليل متباهياً بما فعلت . أنساني الغرور جانب الحذر . فعندما ذكرت الشلنات الخمسة صاح صيحة عظيمة

جعلتني أتوقف عن ذكر الشلنين الآخرين . وقد حمدت الحظ لأن الرجل أعمى فلم يرشده خجلي . سألته متلعثماً :

- كثير ؟

فيصرخ :

- كثير ! ياآلهي ! أنا آخذك الى توروسي بنفسي لقاء كأس براندي . وأمتعك بصحبتي (أعني بصحبة رجل على قدر من الثقافة) فما تقول في الصفقة ؟

قلت له إني لا أفهم كيف يمكن لرجل أعمى أن يكون دليلاً . فضحك بصوت عالٍ وقال إن عصاه أشبه بعيني نسر يقول :

- في جزيرة مول على الأقل ، حيث أعرف كل حجارة وكل دغل بمجرد لمس طرفها . أنظر .

ونقر بعصاه الأرض يميناً وشمالاً وقال :

- ثمة جدول يجري هناك يقف عند طرفه تل صغير منصوبة فوقه صخرة . الطريق الى تورسي مروراً بجانب التل قصير لكنه وعر . والطريق من هنا ، خاص بالماشية . ممهد ومكسو بالعشب ، وان مر من خلال الاحراش .

لابد من الاعتراف بأن ماذكره صحيح حتى في التفاصيل . ولما عبرت له عن استغرابي قال :

- ها ! هذا لاشيء . هل تصدقني الآن إذا قلت لك إني كنت أطلق النار حين كانت في هذا البلد أسلحة قبل صدور «القانون» ؟ أجل ، كنت استطيع الرماية !

ثم قال مع ابتسامة شريرة :

- اذا كنت تحمل شيئاً كالمسدس ، يمكنني أن أثبت لك به صدق كلامي .

قلت له إني لا أملك شيئاً من هذا القبيل وابتعدت عنه مسافة كافية . ماذا لو كان يدري بأن مسدسه ظاهر من تحت سترته طوال

الوقت وأني أرى ضوء الشمس ينعكس على مقبضه المعدني ؟ لكنه لم يكن يدري ، لحسن حظي ، معتقداً بأن سره لم ينكشف .

عندئذٍ بدأ يسألني بمكر من أين جئت ، إن كنت غنياً ، وان كنت استطيع تصريف قطعة نقدية من فئة خمس شلنات (زاعماً إنه يحملها معه في كيس نقوده المعلق بحزامه) . ولبث طوال الوقت يحاول الاقتراب مني وأنا أبتعد عنه . وكنا في تلك الاثناء نسير على درب للماشية مكسو بالأعشاب يقطع التلال صوب توروسي ، ولبثنا نتبادل أماكننا على جانبي الطريق مثل راقصين يؤديان رقصة «الريل»(*) . كنت في المركز الاقوىٰ بلاريب فكانت معنوياتي قوية ووجدت متعة في لعبة «الغميضة» هذه . الا ان الراهب اشتد غضباً أكثر فاكثر وراح أخيراً يسب ويلعن باللغة الغيلية ويضرب بعصاه في الهواء آملاً أن يصيبني .

فقلت له إني أحمل مسدساً مثله واذا لم يمض جنوباً عبر التلال نسفت رأسه برصاصة . وفي الحال أصبح مؤدباً وحاول لفترة من الوقت أن يكسب ودي فلما أخفق شتمني ثانية بالغيلية وانطلق مبتعداً . راقبته يبتعد بخطىٰ واسعة بين الاحراش والبرك ينقر الأرض بعصاه ، الى أن توارى وراء التلال . فأخذت طريقي الى توروسي ثانية ، مسروراً للسفر بمفردي بدلاً من صحبة ذلك الراهب الشرير . كان يوماً تعساً . وكان هذان الرجلان اللذان تخلصت منهما ، الواحد تلو الآخر ، أسوأ من قابلت من الرجال في الاراضي المرتفعة .

في توروسا كان هناك خان عند بوغاز مول يشرف على أرض مورفن . وكان صاحب الخان واحداً إسمه [ماكلين] تبين أنه ينتمي الى عائلة عريقة . لأن إدارة خان في الأراضي المرتفعة تعتبر دليلاً على الارستقراطية ، لاكما نعتبرها نحن . ربما لأن الناس يرون فيها تعبيراً عن كرم الضيافة وربما لأن هذه المهنة تتناسب مع الكسل

والتبطر . كان الرجل يتكلم الانكليزية جيداً . وإذ وجدني إنساناً مثقفاً اختبرني بالفرنسية فتغلب علي بسهولة ، ثم باللاتينية . ولا أدري من منا كان الأفقضل . هذه المنافسة الممتعة جعلتنا أصدقاء ففجلست معه الى المائدة وشربنا خمرة الپنتش (أو ـ اذا توخيت الدقة ـ جلست أنظر اليه وهو يشرب) الى أن بلغ منه السكر فصار يبكي على كتفي .

عرضت عليه زر سترة آلن ـ كما لو كنت أفعل هذا من غير قصد ـ فتبين لي أنه لم يسمع به أويره . بل وظهر حاقداً بعض الشيىء على عائلة آردزهيل وأصدقائه . قبل أن يستولي عليه السكر تماماً ، قرأ علي قصيدة هجاء بلغة لاتينية متينة ، وإن كانت سيئة في معناها ، يرثي بها واحداً من تلك العائلة

حين أخبرته بما جرى لي مع الراهب الدجال هز رأسه واعتبرني محظوظاً لنجاتي منه . قال :

و٣و٤

ـ هذا رجل خطير للغاية . اسمه [دنكان ماك كي] . يستطيع اطلاق النار من عدة ياردات إعتماداً على السمع . لطالما اتهم بجرائم سطو وسلب ومرة بجريمة قتل .

قلت :

ـ المصيبة أنه يدعو نفسه قسيساً !

فيرد صاحب الخان :

ـ ولم لا ؟ مادام هو كذلك . ماكلين أوف ديوارت أطلق عليه هذه الصفة لأنه أعمى . ربما من باب الرأفة ، لأن هذا الرجل يتنقل دائماً من مكان الى مكان يصغي الى الصبيان يتلون صلواتهم . لاشك أنه يجد متعة عظيمة في ذلك .

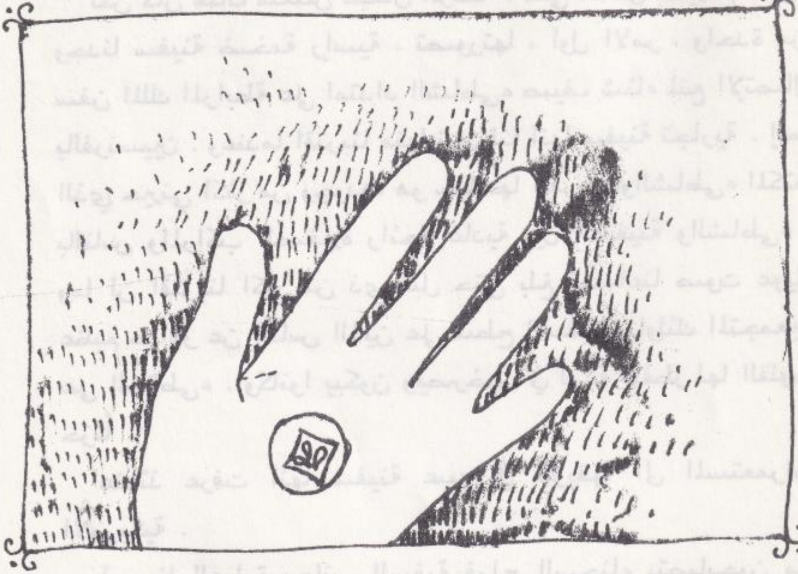
أخيراً دلني صاحب الخان على سريري ، بعدما شرب وأفرط في الشرب ، فاستلقيت في الفراش مرتاح البال مستبشراً . فقد قطعت

الجانب الاكبر من الطريق في جزيرة مول الكبيرة الوعرة هذه ، من جزيرة إيرريد الى توروسي . خمسون ميلاً بخط مستقيم وحوالي مئة ميل (مع تجوالي على غير هدىٰ) قطعتها بأربعة أيام وقليل من التعب . والحق أني صرت أحسن حالاً وأقوى بدناً مما كنت يوم بدأت الرحلة الى توروسي .

(*) الطرطان «وشاح صوفي مقلم مختلف الألوان يلفه السكوتلانديون على صدورهم لتمييز العائلات والقبائل التي ينتمون اليها .

(*) الريل «REEL»رقصة سكوتلاندية يرقصها اثنان يقفان متقابلين ويتبادلان المواضع مايشبه حركة لف خيط أوشريط .

الفصل السادس عشر
(الصبي ذو الزر الفضي في ارض مورقن)



ثمة عبّارة تعمل بانتظام بين توروسي وكنلوكالين الواقعة على البر الرئيسي . ويقع كلا شاطئي المضيق ضمن دائرة نفوذ عشيرة ماكلين القوية .

كان سائق العبارة يدعى [نيل روي ماكروب] ولما كان اسم ماكروب واحداً من أسماء أقارب آلن، كما ان آلن نفسه هو الذي ارشدني الى هذه العبارة، فقد تملكتني رغبة شديدة في التحدث مع نيل روي على انفراد .

لم يكن هذا ممكناً في مركب مزدحم بالناس . وكانت العبارة تتحرك ببطء شديد . كانت الريح ساكنة والعبارة عتيقة بالية المعدات ، فيها مجذافان من جهة ومجذاف واحد من الجهة الأخرى وحين تعب العمال من التجذيف تطوع الركاب لمساعدتهم واحداً بعد

الآخر ، فيما راح الجميع يغنون أغاني بحارة غيلية .

والحق أن عملية العبور كانت ممتعة بفضل الأغاني وهواء البحر العليل وروحية المودة التي تسود الجميع .

لكن كان هناك منغص لجمال الرحلة . ففي مدخل بحيرة (الاين) وجدنا سفينة ضخمة راسية ، تصورتها ، أول الأمر ، واحدة من سفن الملك المرابطة على امتداد الشاطىء صيف شتاء لمنع الإتصال بالفرنسيين . وعندما اقتربنا منها تبين لنا أنها سفينة تجارية . إنما الذي حيرني أكثر من وجودها هو سطحها الغريب والشاطىء المكتظ بالناس والمراكب الصغيرة رائحة غادية بين السفينة والشاطىء . وما أن اقتربنا اكثر من ذي قبل حتى بلغ اسماعنا صوت عويل عظيم صادر عن الناس الذين على سطح السفينة واولئك المتجمعين على الشاطىء . وكانوا يبكون ويصرخون في لوعة تتفطر لها القلوب حزناً .

عندئذ عرفت أنها سفينة عبيد في طريقها الى المستعمرات الامريكية .

أرسينا العبارة بجانب السفية فراح السجناء يتصايحون من فوق سياجها ويبكون ويمدون أيديهم مستنجدين بالركاب الذين بينهم بعض أصدقائهم ومعارفهم . لا أدري كم استمر هذا المشهد . أخيراً أطل قبطان السفينة الغاضب من فوق السياج ورجانا أن نغادر المكان .

فانحرف نيل بالعبّارة عن مرسىٰ السفينة وأطلق كبير المنشدين معنا لحناً حزيناً سرعان ما تلقفه كل السجناء وذويهم على الشاطىء فتردد صداه في كل الجهات كأنه نواح على موتىٰ . ورأيت الدموع تنهمر من عيون الرجال والنساء الذين في العبارة وهم يجذفون . وكان للمشهد ولحن الأغنية التي تدعى (زوال لوكابر) تأثير كبير علي نفسي .

استطعت في كنلوكالين الانفراد بسائق العبارة [نيل روي] عند نزولنا الى الشاطىء ، فقلت له إنني على ثقة بأنه واحد من رجال آبن . فقال :

ـ وماذا لو أجبت بالنفي ؟

قلت :

ـ إني أبحث عن شخص .. وخطر في بالي أن تكون لديك أخبار عنه . اسمه [آلن بريك ستيوارت] .

وعوضاً عن إبراز الزر الفضي كعلامة حاولت بغباء أن أضع في يده شلناً فضياً . عندئذ تراجع الى الوراء وقال :

ـ هذه إهانة لاتحتمل . هذه ليست طريقة يعامل بها سيد سيداً آخر أبداً . الرجل الذي تسأل عنه في فرنسا .

ويضيف :

ـ لكن حتى لو كان في جيبي وبطنك ملأى بالشلنات فلن أدعك تمس شعرة منه .

أدركت أني سلكت الطريق المغلوط ، فلم أضيع الوقت بالاعتذارات ، بل أخرجت له راحة يدي وعليها الزر الفضي . فقال نيل :

ـ حسناً . حسناً . كان عليك أن تبدأ من هذه النقطة .. على أية حال ! إذا كنت الصبي حامل الزر الفضي فكل شيء على مايرام . وعندي أوامر بإيصالك سالماً .

ويضيف :

ـ ولكن اسمح لي أن أتكلم بصراحة . ثمة اسم يجب ألا يرد على لسانك ، وهذا الاسم هو آلن بريك . وشيء آخر عليك الا تفعله أبداً : لاتعرض فلوسك القذرة على سيد من أبناء المرتفعات .

لم يكن من السهل أن أعتذر . فقد كان من الصعوبة بمكان أن أخبره بأني لم أحلم قط (وهي حقيقة) بأن يكون واحد له هيئة نيل

سيداً . ولم يكن نيل ، من ناحيته ، ميالاً الى إطالة الحديث معي . كان يريد إنجاز مهمته والفراغ منها ، فأسرع يرشدني الى طريقة السفر التي سأتبعها وتقتضي أن أبيت الليلة في الخان العمومي ، أقطع أرض مورقن في النهار الى آردغور وأقضي الليلة هناك في بيت رجل يدعى [جون أوف كليمور] ، الذي أحيط علماً بأني قد أصل في اليوم الثالث لينقلني عبر بحيرة في كوران الى بحيرة أخرى في (بالاكولش) لأقصد من هناك بيت [جيمس أوف غلين] في أوكارن بمنطقة ديور من أراضي آبن . كان أغلب السفر في الماء فالبحر في هذه المنطقة يجري متوغلاً بين الجبال ملتفاً حولها مما يجعل السفر فيها شاقاً والسيطرة على البلد شبه مستحيلة ، فهو بلد حافل بالمصاعب والمفاجآت والأخطار .

أعطاني نيل نصيحة أخرى : أن لا أتحدث مع أحد في الطريق وأتجنب أنصار الملك وآل كامبل وذوي السترات الحمر وأن ابتعد عن الطريق واختبىء في الأحراش اذا رأيت أحد هؤلاء الجنود قادماً «فليس من باب الصدفة أن تراهم في طريقك» ، أي ، باختصار ، أن أتصرف كأي لص أو عميل لليعاقبة كما ظنني .

كان الخان في كنلوكالين أشد بؤساً وقذارة من زرائب الخنازير . فهو سحب من الدخان وحشود من الفئران ونزلاء بلفهم الصمت . لم أكن منزعجاً من المبيت في هذا المكان المقرف فقط ، بل ومن سوء تعاملي مع نيل ، متوهماً أن مجيئي الى هذا الخان هو أسوأ عقاب يمكن أن أتلقاه . لكن أوهامي سرعان ماتبددت . فبعد نصف ساعة من المكوث في الخان (قضيت أغلبها واقفاً بالباب هرباً من الدخان) نزلت على المكان صاعقة وانحدرت سيول المطر فاغرقت جانباً من الخان .

كانت اماكن الاستراحة وخانات المسافرين في عموم سكوتلاندة رديئة للغاية في تلك الأيام . ومع ذلك فقد عجبت لنفسي كيف أني

تركت مكاني قرب الموقد وذهبت الى فراشي خائضاً بحذائي في ماء المطر الذي غمر المكان .

حين بدأت رحلتي في فجر اليوم التالي صادفت في طريقي رجلاً قصير القامة متين البنيان وقور الهيئة يمشي ببطء شديد . يطالع في كتاب أحياناً ويشير الى الأماكن باصبعه أحياناً . وكان حسن الملبس أنيقاً في زيه الكنسي .

وجدت أنه مبشر آخر ، إنما من طراز يختلف عن الراهب الأعمىٰ : فهو واحد من الذين يبعث بهم مجتمع أدنبره لنشر الوعي المسيحي والتبشير في المناطق المتوحشة النائية من الأراضي المرتفعة . كان يتكلم لغة أهل الجنوب التي صرت أشتاق الى سماعها .

وسرعان ماوجدنا أننا ، بجانب انتمائنا الى منطقة واحدة ، نرتبط برابطة خاصة . ذلك أن صديقي الطيب ، قسيس إيسندين كان قد ترجم عدداً من التراتيل وكتب الأدعية الى اللغة الغيلية التي يعتز بها القس هندرلاند (اسم المبشر هذا) إعتزازاً كبيراً . والحق ان احدىٰ تلك التراجم هي التي كان [هندرلاند] يقرأها حين التقينا .

نشأت بيننا صداقة في الحال ، فقد اتفقت طريقنا حتى كينغرلوك . وكان يتوقف هنا وهناك على طول الطريق ليتحدث الى المسافرين والعمال الذين نلاقيهم أو نمر بهم . لم أستطع أن أتبين ماكان يدور من حديث ، الا أن السيد هندرلاند كان محبوباً في الريف فقد لاحظت العديد من الناس يخرجون علب السعوط(*) ويشمون مع القس قليلاً منه .

حكيت له من قصتي ماتسمح به الحكمة ، بمعنىٰ أني لم أخبره بالجزء المتعلق بـ [آلن بريك] . وقلت له إني قاصد مدينة بالاكولش لأزور صديقاً لي ، متجنباً ذكر مدينة أوكارن أو حتى ديورر ، خشية أن تجعله يرتاب .

وحدثني هو كثيراً عن عمله والناس الذين يعمل بينهم وعن القسس واليعاقبة المتخفين «وقانون التجريد من السلاح» والأزياء والأمور الغريبة الأخرىٰ في تلك البقاع والأيام .

كان رجلاً معتدلاً في آرائه السياسية . فقد ألقى اللوم على البرلمان لتشريعه «قانوناً» يعاقب على الملابس أشد مما يعاقب على حمل السلاح .

هذا الاعتدال السياسي شجعني على أن أستفسر منه عن (الثعلب الأحمر) وفلاحي آبين . استفسرت بطريقة تبدو طبيعية بالنسبة لمسافر قاصد تلك المنطقة . فقال الرجل إنها مسألة سيئة . قال :

ـ عجباً ، من أين يأتي الفلاحون بالمال وهم يكابدون الجوع ! أنت لا تحمل معك شيئاً مثل السعوط يامستر بالفور ، أليس كذلك ؟ كلا . أنا قد يعجبني لكن هؤلاء الفلاحين ـ كما قلت ـ مجبرون بعض الشيء بلاشك على تعاطيه . جيمس ستيوارت في ديورر(الرجل الذي يسمونه جيمس أوف غلين) هو الأخ غير الشقيق لـ [آردزهيل] ، زعيم العشيرة ، وهو رجل يعلقون عليه آمالاً كثيرة ويعمل بهمة عالية . ثم هناك الشخص الذي يسمونه آلن بريك ..

فصحت :

ـ آه ! ماذا عنه ؟

فأجاب هندرلاند :

ـ ماذا عن الريح التي تعصف أنى تشاء ؟ هو هنا وهناك . اليوم هنا وغداً لاتجده . قطة أدغال جميلة . قد يكون في هذه اللحظة يراقبنا من بين الأحراش ، ولن أستغرب !

أنت لاتحمل شيئاً من السعوط، أليس كذلك ؟

فأجبته بالنفي ، غير أن هذا لم يمنعه من توجيه السؤال عدة مرات فيما بعد . فقال متحسراً :

ـ جائز جداً ، لكن غريب أنك لاتحمل منه شيئاً . كنت أقول إن آلن

بريك هذا شخص جريء متهور ومعروف بأنه الساعد الأيمن لجيمس ستيوارت . إنه خاسر حياته لامحالة ، ولذا فهو لايتردد عن شيء ، وربما لايمانع في دفن خنجره ببطن أي فلاح . يمتنع عن دفع الأتاوة .

قلت :

ـ انت ترسم صورة قاتمة للمسألةكلها يامستر هندرلاند . إذا كان الخوف هو كل ما في حياة الطرفين فلا يهمني سماع المزيد .

فقال المستر هندرلاند :

ـ لا ، هناك حب أيضاً ، ونكران للذات يجعلان أمثالنا من الناس يتوارون خجلاً . ثمة أمور جميلة . قد لا تكون مسيحية ، الا أنها إنسانية جميلة . حتى آلن بريك ، على ماسمعته عنه ، شخص يجب احترامه . ماأكثر الكذابين الماكرين الذين تجدهم يلازمون الكنيسة في بلدنا ، ويتمتعون باحترام العالم ، وقد يكون بين هؤلاء من أسوأ من القتلة الضالين يامستر بالفور . نعم ، نعم . علينا أن نتعظ .

ثم أضاف وهو يبتسم :

ـ قد تظن أني قضيت زمناً طويلاً في الأراضي المرتفعة ، فأجبت بالنفي قائلاً إني رأيت الكثير من الأمور الطيبة والناس الأخيار في تلك البلاد . ويكفي أن يكون المستر كامبل نفسه واحداً من أبناء المرتفعات .

فقال :

ـ إي ، هذا صحيح . دم نبيل .

سألته :

ـ وماذا عن وكيل الملك ؟

فيرد هندرلاند :

ـ كولن كامبل ؟ إنه كمن يضع رأسه في خلية نحل !

قلت :

ـ سمعت أنه يريد طرد الفلاحين بالقوة ؟

فيقول :

ـ أجل ، لكن المسألة بين الأخذ والرد كما يقول الناس . في البداية ذهب جيمس أوف غلين الى أدنبره لإستشارة محام (من آل ستيوارت بلاريب ، فهم ملتئمون مثل الخفافيش في برج كنيسة) عمل على تعطيل الإجراءات .

عندئذٍ تدخل كولن كامبل ثانية وصارت له الكلمة المسموعة أمام بارونات وزارة المالية . وقد علمت أنه سيتم تهجير أول وجبة لفلاحين من منطقة ديورر رغم أنف جيمس ، وهذا تصرف غير حكيم في رأيي .

سألته :

ـ أتعتقد بأن الطرفين سيتقاتلان ؟

فيجيب هندرلاند :

ـ طيب .. إنهم مجردون من السلاح ـ أو هذا هو المفروض ، لأن هناك كميات . كبيرة من الحديد البارد مخبوءة في أماكن لاتلفت الأنظار . كولن كامبل سيأتي بالجنود . لكن لو كنت بمكان السيدة زوجته لما شعرت بالطمأنينة حتى يعود الى البيت . إن آل ستيوارت أناس غريبون .

سألته إن كان هؤلاء أسوأ من جيرانهم فأجاب :

ـ لا ، ليسوا .. وهذا هو الجانب السيىء ففي الأمر . إذا استطاع كولن كامبل تنفيذ خطته في آبن فعليه أن ينجح بتنفيذها في الأقليم التالي ، الذي يسمونه (مامور) ، وهو من المناطق التي تقيم فيها قبائل الكاميرون . كامبل هو وكيل الملك في كلا الاقليمين ويسعى الى طرد الفلاحين منهما . أقول لك يامستر بالفور (ولا أكتمك الحقيقة) إني أعتقد بأنه إن أفلت من إحدى الجماعتين لقي حتفه على يد الجماعة الأخرى»

وهكذا قضينا أغلب النهار نسير ونتحدث . أخيراً ، وبعد أن عبر المستر هندرلاند عن سروره بصحبتي وارتياحه لمقابلة أحد أصدقاء المستر كامبل (الذي وصفه بالمغني العذب للمزامير) ، اقترح علي أن أقطع رحلتي وأبيت الليلة في بيته القريب من كنغيرلوك . الحقيقة أني طرت من الفرح ، لأني لم اكن متلهفاً لرؤية [جون أوف كليمور] .

فبعد مغامرتي المزدوجة ، مع الدليل المحتال ومع القبطان المحترم صرت أخاف بعض الشيىء من الجبليين الغرباء .

تصافحنا على ذلك . وفي عصر اليوم وصلنا الى بيت صغير منعزل على شاطىء بحيرة لين . كانت الشمس قد توارت خلف جبال آردغور الجرداء فيما ظل نورها يغسل قمم جبال آپن التي تبدو عند حد الأففق . وكانت مياه البحيرة ساكنة ولايعكر الهدوء الشامل سوى أصوات النوارس على جوانب البحيرة . كان جو من الكآبة والوحشة يخيم على المكان .

ماأن دخلنا مسكن المسترهندرلاند حتى اندفع بخشونة أدهشتني للغاية (لأني صرت أعرف دماثة خلق أبناء المرتفعات) الى الغرفة فاختطف قنينة وملعقة عظمية صغيرة وراح يعبىء أنفه بكميات كبيرة من السعوط ، تملكته على أثرها نوبة شديدة من العطاس فالتفت ناظراً الي بابتسامة بلهاء

قال :

ـ أخذت على نفسي قسماً . أقسمت ألا أحمله معي . حرمان للنفس عظيم ولاشك . لكن حين أفكر بشهداء «الطقوس السكوتلاندية» والقضايا المسيحية الأخرى ، أشعر بالخجل من التفكير به .

وحال ما انتهينا من تناول الطعام (كان طعام الرجل الطيب يتألف من ثريد مرق اللحم والبصل المسلوق) عاد وجهه الى سابق رزانته وقال إن واجبه يحتم عليه سد فراغ المستر كامبل ، أي اختيار مدى

إيماني بالله . بدأت أبتسم ساخراً منه بعد مسألة السعوط ، لكن ماأن تحدث قليلاً حتى فاضت عيناي بالدموع .

ثمة شيئان على المرء أن لايضجر منهما : الطيبة والتواضع .

نحن لانكاد نجدهما في هذا العالم القاسي ، حيث الناس باردو المشاعر مغرورون ، لكن ماورد على لسان المستر هندرلاند هو الطيبة والتواضع حقاً . صحيح أن نفسي ملأها الغرور بما خضت من مغامرات وخرجت منها منتصراً مزهواً ـ كما يقول المثل ، لكنني سرعان ماوجدتني أركع بجانب رجل عجوز بسيط لأصلي ونفسي يملؤها الفخر والفرح لوصولي الى هذا المكان .

أهداني ، قبل الذهاب الى النوم ، قطعة من فئة ستة بنسات لتساعدني في سفري ، استخرجها من كيس فقير كان يخفيه في جدار البيت الطيني ، فلم أدر ماذا أ فعل أمام هذه الطيبة وهذا الكرم . كان الرجل صادقاً أميناً معي الى الحد الذي جعلني أجد من دواعي اللياقة أن أدعه يكرمني بهذه الطريقة التي جعلت منه إنساناً أشد مني فقراً .

(*) السعوط (البرنوطي باللهجة العامية العراقية) ومو مسحوق التبغ وبعض المطيبات ويؤخذ عن طريق الشم .

دار ثقافة الاطفال

دار الحرية للطباعة - بغداد

السعـر (دينـار وربـع)